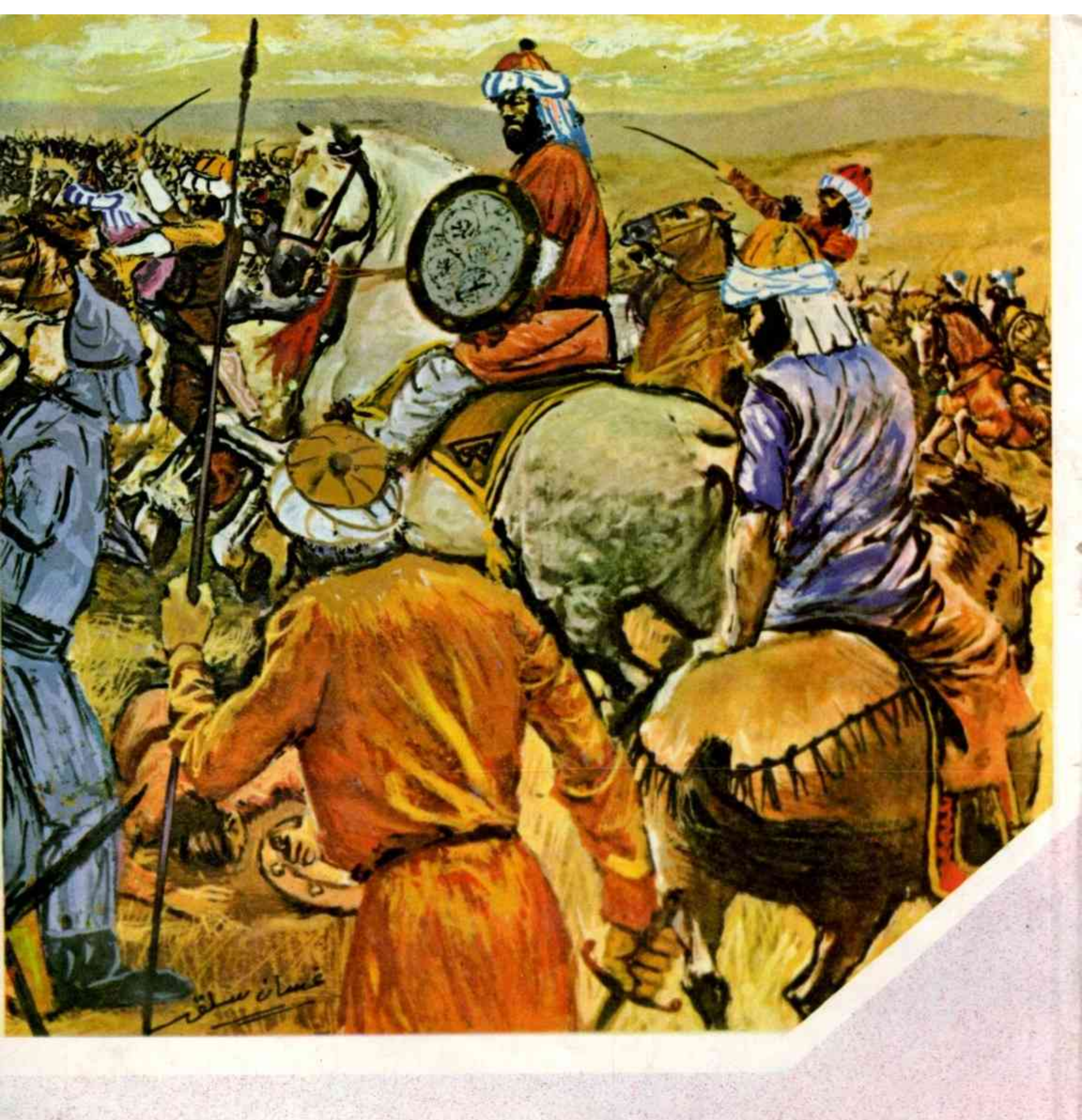


معركة اليرموك

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

معركة اليرموك

١٣ هـ / ٦٣٥ م

محمد الانطاكي

دار الشرق العربي
بيروت. شارع سورية. بناية درويش

رسول الله يبشر بفتح الشام

في السنَّةِ الخامسةِ للهجرةِ أقبلَتْ قُرَيْش وحلفاؤها في عَشَرةِ آلافِ مقاتلٍ تُريدُ غزوَ المدينةِ المنوَّرةِ والقضاءَ على الإسلامِ. وبسبب قلَّةِ عددِ المسلمين يومذاك قرَّر رسولُ اللهِ (ص) إتخاذَ موقفِ الدفاعِ، فأمرَ بحفرِ خَندقٍ يحمي به النّقاطَ الضعيفةَ من محيطِ المدينةِ.

وبينما رسولُ اللهِ (ص) في إحدى جولاتِهِ يتفقَّدُ أعمالَ الحَفْرِ، إذ بَصُر بسلمانَ الفارسيِّ وقدِ استعصَتْ عليه صخرةٌ في الخَنْدَقِ، فأخذَ منه

المِعْوَلَ، وضربَ به الصخرةَ عِدَّةَ ضَرَباتٍ، فلمعَتْ تحتَ المِعْوَلِ بَرْقةٌ، فأخرىٰ، فثالثة؛ فقال سلمانُ:

ــ بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ، ماهذا الذي رأيتُهُ لَمَعَ تحت المِعولِ وأنت تضربُ؟

فأجاب الرسولُ (ص):

ــ أما الأولى فإنَّ اللهَ فتح عليَّ بها اليَمَنَ، وأمَّا الثانيةُ فإن اللهَ فتح عليَّ بها الشامَ والمَغْرِبَ، وأما الثالثةُ فإنَّ اللهَ فتحَ عليَّ بها المَشْرِقَ.

كانت هذهِ، ولا شكَّ، كلمةً أرادَ بها الرسولُ تشجيعَ المسلمين ورَفْعَ روحِهِمُ المعنويةِ وهم في أشَدَّ ساعاتهم حراجَةً، ولكنها كانتْ أيضاً دليلاً لا شكَّ فيه على أن التفكيرَ بتحريرِ الجزيرةِ العربيةِ من الإحتلالِ الأجنبيِّ كان يراودُ الرسولَ (ص) مُنْذُ وقتٍ مُبْكِّرٍ جداً.

نعم. لقد رأى رسولُ الله (ص) ببَصيرتِهِ الثاقبةِ النافذةِ أنه لا قرارَ ولا إطمئنانَ لدولتِهِ الفتيَّةِ الناشِئَةِ ما دام الفُرْسُ يَحْتَلّونَ اليَمَنَ في الجُنوبِ الغَربيِّ، والعراقَ في الشمالِ الشرقيِّ، وما دام الرومُ البيزنطيّونَ يحتلون الشامَ في الشّمالِ الغربيِّ. وقرَّر أنه لا بدَّ من تحريرِ هذه الأجزاءِ المُهِمَّةِ من جزيرةِ العربِ، والوصولِ بهذهِ الدولةِ إلى حدودِها الطبيعيَّةِ، أي إلى قِمَمِ جبالِ طوروسَ في الشّمالِ، وقِمَمِ جبالِ زاغروسَ في الشّمالِ الشرقيِّ.

أولى حملات الرسول:

استطلاع وتدريب

ولم تكَدْ تمضي ثلاثُ سنوات ٍعلى ذلك، ويخضعُ الحجازُ كله للدينِ الجديدِ، حتى انتقل رسولُ الله ِ(ص) من مَرْحلةِ العملِ لتنفيذِ ما قرَّرهُ بشأنِ تحريرِ الجزيرةِ العربيةِ من الاحْتلالِ الأجنبيِّ. فأرسلَ في جُمادىٰ الأولى سنةَ ٨ للهجرةِ مولاهُ زَيْدَ ابْنَ حارِثَةَ على رأسِ ثلاثةِ آلافِ مُقاتلٍ لحربِ الروم.

ولمّا عَلِمَ «هِرَقْلُ» مَلِكُ الروم بأنباء ِهذه الحملةِ

أرسلَ أخاه «تيودوريكَ» على رأسِ جيشٍ قِوامُهُ مائةُ ألفِ مقاتلٍ لملاقاة الجيشِ العربي الصغيرِ. والْتقى الجيشان ِفي جُنوبيِّ فِلسطينَ قريباً من قريةٍ تدعى «مُؤْتَةَ» ودارت رحا الحرب فقُتِلَ زيدُ بنُ حارثةَ، فتولى القيادةَ جعفرُ بنُ أبي طالبٍ فقُتِلَ، فتولاها بعدَهُ عبْد الله ِبنُ رواحةَ فقُتِلَ، فتولاها خالدُ ابنُ الوليدِ الذي أمر بِالإنسحابِ بعد الذي رآه من كَثْرةِ جنودِ الأعداءِ.

صحيحٌ أن الحملةَ لم تنتهِ بنصرٍ تَعْبَويًّ (تكتيكي)، ولكنها كانت من الناحيةِ السَّوْقيَّةِ (الاستراتيجية) نصراً عظيماً لا شكَّ فيه، وذلك لأنها حَقَّقَتْ كلَّ الأغراضِ المُحَدَّدَةِ لها، وهي: الاسْتطلاعُ، والتدريبُ، والدِّعايةُ.

١ ــ فلقد كان واضحاً أنَّ الرسولَ (ص) لم

يَقْصِدْ بهذهِ الحملةِ أن يُحرِّرَ الشامَ كلَّه، ولا جزءاً منه. إذ لا يُعْقَل أنْ يَعْهَدَ بمهمةٍ في مثلِ هذهِ الجسامةِ إلى جيشٍ لم يَزِدْ على ثلاثةِ آلافِ مقاتلٍ في حين يبلغ جيشُ الاحْتِلالِ الروميِّ مِئاتِ الألوفِ. إذن كانتِ الغايةُ فَقَطْ مُجَرَّدَ الإحتكاكِ بالعدوِّ لدِراسَةِ رُدودِ أفعالِهِ، ومعرفةِ مِقدارِ سُرعَتِهِ في الاسْتجابَةِ، والإطِّلاعِ على أسلحتِهِ وأساليبهِ في القتالِ.

٢ ــ كما كان واضحاً، من عدمِ قيادتِهِ للحملَةِ بنفسِهِ، أنَّه أرادَ أن يُعطِيَ رجالَهُ الفُرصَةَ للتَّدَرُّبِ على القيادةِ، وعلى تكييفِ أسلوبِهِمُ القتاليِّ بالشكل الذي يلائِمُ التعاملَ مع جيوشٍ قويةٍ مُنظَّمةٍ كجيوشِ الإمبراطوريةِ الروميَّةِ البيزنطيةِ. وقد تحقَّقَ هذا الغرضُ بتَسَلُّمِ خالدِ بنِ الوليدِ القيادةَ، وتنفيذِ خُطَّتِهِ الذَّكيةِ بالانسحابِ بغيرِ خسائرَ تُذْكَرُ. ولهذا

رأينا الرسولَ (ص) يُعْجَبُ بخالدٍ، و يلقّبُهُ بسيفِ اللهِ، مُريداً بذلك أنْ يُبيِّنَ للمسلمينَ أنَّ الانسحابَ المنظمَ عندَ الضرورة يُعَدُّ نَصراً لا هزيمةً.

٣ ـــ وأخيراً فقد حَقَّقَتْ هذه الحملةُ غَرَضَ الدِّعايةِ منها على أكملِ وَجْهٍ، إذ نَزَعَتْ من قُلوبِ عَرَبِ الشامِ والعراقِ الرُّعبَ الذي كانوا يَشْعرون بِهِ تجاهَ الإمبراطوريَّتَيْنِ الفارسيةِ والروميةِ، ولَفَتَتْ أنظارَهُم إلى حقيقةٍ كانتْ خافيةً عليهم، وهي أنَّ العربَ بإيمانِهِمْ وصِدقِ نيّتِهِمْ قادرونَ على مقارعةِ أكبرِ الإمبرطورياتِ، وأنَّ الرومَ والفُرْسَ محتلونَ أجانبُ يَجبُ تطهيرُ البلادِ منهم. وكان من نتيجةِ ذلك كلِّه أنْ دَخَلَ في الإسلامِ كثيرٌ من القبائلِ المتاخمةِ للشامِ والعراقِ. وكان من جملةِ من أسلمَ فَرْوَةُ بنُ عمروٍ الجُذاميُّ الذي كان قائدَ فرقةٍ في

جيشِ الرومِ، والذي هُدِّدَ بالقتلِ إن لم يَرْجِعْ إلى النصرانيَّةِ. فأبَىٰ، فقُتِلَ.

غزوة وقائية موفقة

بعد أربعةَ عَشَرَ شهراً من غزوةِ مُؤْتَةَ، هذه الغزوةِ التي كانتْ مقدمةً للحروبِ العربيةِ البيزنطيةِ، وتجربةً لِجَسِّ نَبْضِ العدوِّ، ترامَتْ إلى الرسولِ (ص) أنباءٌ تُفيدُ بأنَّ الرومَ جهّزوا جيشاً عظيماً لغزوِ الحجازِ، والقضاءِ على نفوذِ المسلمينَ الذي أخذ يَتَّسِعُ مداهُ في البلادِ السوريةِ الخاضعةِ لحكمِهِمْ، فأعلنَ الرسولُ النفيرَ العامَّ، وسارَ بنفسِهِ على رأسِ جيشٍ بلغَ ثلاثينَ ألفَ مقاتلٍ، يريدُ ملاقاةَ الرومِ في شِماليِّ الحِجازِ.

لمّا عَلِمَ الرومُ بمسيرِ الجيشِ العَربيِّ انسحبوا إلى

داخلِ البلادِ الشاميةِ في محاولةٍ لاستدراجِ الجيشِ العربيِّ وإبعادِهِ عن قواعِدِهِ، ثم تطويقِهِ والقضاءِ عليه. لكنَّ الرسولَ (ص) لم يَقَعْ في الفَخِّ الذي نصبهُ الرومُ له، فلَم يَكَدْ يَصِلُ إلى «تَبُوكَ» في شِماليِّ الحجازِ، ويَعلمُ بانسحابِ الرومِ، حتى أمرَ بالوقوفِ والإنتظارِ. وبعد عشرينَ يوماً قضاها في تثبيتِ نفوذِهِ وسيطرتِهِ على مشارِفِ الشامِ، عاد إلى المدينةِ مكتفياً بهذا النصرِ المعنويِّ.

حملة أخرىٰ ناجحة

وفي عام ١١ للهجرةِ ندبَ الرسولُ (ص) المهاجرينَ والأنصارَ إلى القتالِ فلم يَتَخَلَّفْ منهم أحدٌ، وتألَّفَ منهم جيشٌ بَلَغَ خمسةَ آلافِ مقاتلٍ جعلَهُ الرسولُ تحت قيادةِ أسامةَ بنِ زيدٍ الشابِّ الذي لم يتجاوزِ الثامنةَ عَشْرَةَ من عُمْرِهِ. وحدَّدَ الرسولُ (ص) للقائدِ الشابِّ مَهامَّ حَمْلَتِهِ التي لم تَكَدْ تختلفُ عن مَهامِّ حملةِ مُؤْتَةَ، وهي استطلاعُ قواتِ العدوِّ الروميِّ، ودراسةُ أساليبِهِ القتاليَّةِ، والتظاهُر العسكريُّ على تخوم الشّامِ بِقَصْدِ الدعايةِ للجيشِ العربيِّ المُسلمِ بين قبائلِ العربِ الشاميينَ الذين كانوا تحت النفوذِ الروميِّ.

وقَبْلَ مَسيرِ أسامةَ بجيشِهِ مَرِضَ الرسولُ (ص)، ثم تُوُفِّيَ في يوم الإثنين ١٢ ربيعٍ الأوَلِ سنةَ ١١ هجرية، ثم قامتْ حركةُ الرِّدَةِ بين بعضِ القبائلِ العربيةِ التي امتنعتْ عن تأدِيَةِ ما فَرَضَهُ الإسلامُ عليها من الزكاةِ. وتألَّبَتِ القبائلُ المُرتَدَّةُ على الإسلامِ، وحاصَرَتْ عاصمتَهُ المدينةَ المنوَّرَةَ. وعلى الرُّغْمِ من كل هذه الأخطارِ التي حاقَتْ بالمسلمينَ، فإن الخليفةَ الأولَ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ أبى إلا أنْ يَسيرَ جيشُ أسامةَ لتحقيقِ الأغراضِ المرسومةِ له.

وسار جيشُ أسامةَ في أواخرِ شهرِ ربيعٍ الأولِ سنة ١١ هجرية مُتَّجهاً صَوْبَ فِلِسطينَ حتى وصلَ الى البلقاء قريباً من مُؤْتَةَ، فباغَتَ قبائلَ قُضاعةَ وقضى على كل مقاومةٍ فيها، وهاجَمَ مفارِزَ الروم المكلَّفة بحراسةِ الحدودِ فلم يُبْقِ لها أثراً، وعادَ مسرعاً من

حيثُ أتى قَبْلَ الاصْطدامِ بجيشِ الرومِ الذي خفَّ مسرعاً لانقاذِ حاميات الحدودِ ولكن بَعْدَ فواتِ الأوانِ.

* * *

كان إلحاحُ الرسولِ الكريمِ على تَوْجيهِ حَملاتِهِ العسكريةِ إلى الشامِ فقطْ يُشيرُ بوضوحٍ إلى أنَّ خُطَّتَهُ العامَّةَ في التحريرِ تقوم على فتحِ الجبهةِ الشاميةِ وَحْدَها، وَعَدَمِ تحريكِ أي ساكنٍ في الجبهةِ العراقيةِ. وقد كان لذلك أسبابٌ استراتيجيةٌ وجيهةٌ منها:

١ ـ أنَّ الديارَ الشاميةَ بعيدةٌ عن «القسطنطينيةِ» عاصمةِ الدولةِ الروميةِ البيزنطيةِ، قريبةٌ من المدينةِ المنورةِ عاصمةِ العربِ المسلمين. وهذا ما يجعل إمداداتِ العدوِّ بطيئةً، مُكَلِّفَةً،

و يَجْعَلُ إمداداتِ الصَّدِيقِ سريعةً غيرَ مُكَلِّفَةٍ. وكل هذا يجعلُ العملياتِ العسكريَّةَ في الشامِ أيْسَرَ على العربِ وأضمنَ لهم من عملياتِهِمْ في العراقِ الذي كان الفرسُ قد أقاموا عاصمتَهُمْ «المدائِنَ» في قَلْبِهِ.

٢ ــ أنَّ عربَ الشامِ الموالينَ للرومِ، والذين لم يكونوا قد دخلوا في الإسلامِ بَعْدُ، كانوا غاضبين على إمبراطورِ الرومِ بسببِ قَطْعِهِ الإعاناتِ الماليَّةِ التي كان يَدْفَعُها لهم لِقاءَ حِمايَتِهِمْ للحدودِ الروميةِ من غزواتِ العربِ. وفي مثلِ هذهِ الحالِ، فإن المُتَوَقَّعَ أنْ يكونَ عربُ الشامِ أسرعَ من عربِ العراقِ إلى تلبيةِ دَعْوةِ عربِ الجزيرةِ المسلمينَ، والتخلِّي عن الإمبراطوريةِ الروميةِ.

٣ ـ أنَّ سُكَّانَ الشامِ من غيرِ العربِ كانوا على

خلافٍ دينيٍّ مُسْتَحْكِمٍ مع حُكّامِهِم الرومِ، مما يجعلُ ترحيبَهُمْ بالفتحِ العربي أمراً مُحْتَملاً جداً، خلافاً لفلاّحي العراقِ النصارى الذين مَنَحَهُمْ الفرسُ كاملَ الحريّةِ الدينيةِ.

أبو بكر يُعَدِّل خطة الفتح

وقد عَزَمَ أبو بكرٍ بَعْدَ وفاةِ الرسولِ على اعتمادِ هذه الخطةِ وتنفيذِها، لولا أنَّ أموراً حدثت جعلتْهُ يَرْجِعُ عن ذلك.

١ ــ فأولاً: كانتِ الإمبراطوريةُ الروميةُ أسْرَعَ من الإمبراطوريةِ الفارسيةِ إلى التنبُّهِ على الخَطَرِ القادمِ من جهةِ العربِ المسلمينَ، وذلك بسببِ الحَمَلاتِ المُبَكِّرَةِ التي تعرَّضتْ لها من قِبَلِهِمْ (كغزوة مؤتة، وغزوة تبوك، وحملة أسامة ابن زيد) ولذا سارعتْ إلى تعزيزِ جيوشها في الديارِ الشاميةِ،

تعزيزاً جعل كلَّ عمليةٍ عسكريةٍ عربية ضدَّها عُرْضَةً للمقاومةِ العنيفةِ.

٢ ــ وثانياً: فإن الدعوةَ الإسلاميةَ انتشرتْ في عربِ العراقِ أكثرَ مِن انتشارِها في عرب الشام. وهذا يجعلُ العملَ في الجبهةِ العراقيةِ أيسرَ منهُ في الجبهةِ الشاميةِ. يُضافُ إلى ذلك ظهورُ شخصيةِ المُثَنَّى بنِ حارثةَ الشيبانيِّ، هذا البطلِ الذي كان يَرْنو منذُ الجاهليةِ إلى تحرير العراقِ من ذلِّ الإحتلالِ الفارسيِّ له، والذي قَدِمَ في السنةِ التاسعةِ للهجرةِ على رأسِ وَفْدٍ من قبائلِ ربيعةَ وشَيْبانَ إلى رسولِ الله (ص)، فأعلنَ إسلامَهُ وإسلامَ قومِهِ، وَشَرَحَ للرسولِ الكريمِ الموقفَ في العراقِ، وطلب منه تأييدَهُ في جهادِهِ ضدَّ الفرسِ، فرحَّبَ به محمدٌ (ص) وباركَ جهادَهُ.

ورجعَ هذا البطلُ المِغْوارُ إلى العراقِ حيثُ مضاربُ قبيلتِهِ على ضفافِ الفُراتِ، يحاولُ بجهودِهِ الشخصيةِ، ودونَ انتظارِ المساعدةِ من المدينةِ المنورةِ، أن يُحقِّقَ حلمَهُ القديمَ، هذا الحلمَ الذي كانت تغذّيهِ ذكرياتُ معركةِ «ذي قار» التي كان له ولأفرادِ أسرتِهِ بني شيبانَ النصيبُ الأكبرُ من شَرَفِها ومَجْدِها.

وقد قَنِعَ المُثنّى بنُ حارثةَ خلالَ حياةِ الرسولِ الكريمِ، والأيامِ الأولى من خلافةِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنه، قَنِعَ بالقيامِ بعملياتٍ عسكريةٍ متواضعةٍ على ضفافِ الفُراتِ، في محاولةٍ لاستطلاعِ مقاومةِ الفرسِ وَجَسِّ نبضِهِمْ، لأنه كان على ثِقَةٍ بأنَّ جيشَهُ الصغيرَ الذي لم يتجاوزْ ثمانيةَ آلاف مقاتلٍ من ربيعةَ وشيبانَ، لايستطيعُ أن يَدْخُلَ مع الفرسِ في معاركَ

ضخمةٍ حاسمةٍ. وهكذا راح يُغيرُ بهذا الجيشِ الصغيرِ على الأطرافِ منتظراً أن تهدأ الأحوالُ في العاصمةِ و يَتَفَرَّغَ الخليفةُ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ لإرسالِ النَجَداتِ التي كان وعدَهُ بها ليقومَ بالحركاتِ العسكريةِ الكبرى التي كانتْ تراوِدُ فِكرَهُ.

وهكذا عَزَمَ أبو بكرٍ الصديقُ رضي َالله ُعنهُ على رَسْمِ خُطَّةٍ جديدةٍ تُلائِمُ الظروفَ الجديدةَ، فأقرَّ في مَطْلَعِ عامِ ١٢ للهجرةِ خُطَّةَ الفتحِ العامَةَ التي تَتَضَمَّنُ الهجومَ على الفرسِ في العراقِ، والدفاعَ في الجبهةِ الشاميةِ تجاهَ الرومِ على الصورةِ التاليةِ:

١ ــ يَتَقدمُ خالدُ بنُ الوليدِ الذي بلغَ جيشُهُ نحوَ عَشَرَةِ آلافِ مُقاتلٍ، والذي انتهى الآنَ من حروبِ الرِّدَةِ في نجدٍ واليمامةِ، يتقدمُ إلى جُنوبيِّ العراقِ، فيبدأ بفتحِ الأبُلَّةِ على شطِّ العربِ، ليقطَعَ الطريقَ

على كلِّ مَدَدٍ فارسيٍّ يأتي من هذه الناحيةِ (من المعروف أن بُقْعةَ شَطّ العربِ هي أسهلُ طريقٍ يربطُ جُنوبيَّ العراقِ بقلبِ البلادِ الفارسيةِ)، ثم يَتَوَغَّلُ شِمالاً باتجاه الحِيْرَةِ.

٢ ــ يُواصلُ المثنى بنُ حارثةَ الشيبانيُّ غاراتِهِ على الحِيْرَةِ بُغْيَةَ إيهامِ الفُرسِ أن مَحْوَرَ الهجومِ هو في هذِه الناحيةِ على حينِ يكون مِحْوَرَا الهجومِ هما مِحْوَرَ خالدِ بنِ الوليدِ من الجُنوبِ، ومحوَرَ «عِياضِ بنِ غَنْمٍ» من الشِّمالِ.

٣ ــ يَسْتَمِرُّ «سُوَيْدٌ العِجْلِيُّ» وباقي أمراءِ القبائلِ العربيةِ المرابطةِ في غربِي الفراتِ على الإحْتفاظِ بمواقِعِهِمْ على أطرافِ «الأُبُلَّةِ»، ثم يلحقون، ومعهم جميع قواتهم التي تُقَدَّرُ بثمانيةِ آلافِ مقاتلٍ، بخالدِ بنِ الوليدِ بَعْدَ وصولِهِ إلى العراقِ.

٤ ـــ يزحفُ «عياض بنُ غَنْمٍ» بجيشِهِ المرابطِ شرقيَّ الحجازِ إلى «دُوْمَةِ الجَنْدَلِ»، ومنها إلى قريةِ «المُضَيَّحِ» على الضَّفَّةِ الغربيةِ للفراتِ شِماليَّ الحِيرةِ، ثم ينعطفُ نحو الجُنوبِ وَوِجْهتُهُ الحِيرةُ ليلقى فيها خالدَ بنَ الوليدِ. وأيُّهما سبقَ إليها كان هو القائدَ العامَّ للجبهةِ العراقيةِ.

٥ ـــ يَتَقَدمُ «خالدُ بنُ سعيدِ بنِ العاصِ» بجيشِهِ البالغِ سبعةَ آلافِ مُقاتلٍ إلى الحدودِ الفِلِسْطينيةِ، ويرابطُ في «تَيْماء» ويَتَّخِذُ منها قاعدةً لحركاتِهِ الحربيةِ الإستطلاعيةِ، في محاولةٍ لشَغْلِ الرومِ والعربِ الموالين لهم عن التَعَرُّضِ لجيشِ عِياضٍ الذي كان مُضْطَراً، من أجلِ الوصولِ إلى شِماليِّ العراقِ بمقتَضَى الخُطةِ المرسومةِ، إلى اختراقِ شرقيِّ الأرْدُنِّ، وهي الأراضي التي كان يَقْطُنُها الغساسنةُ حلفاءُ الرومِ.

أبو بكر يعدل الخطة ثانية

وسارتِ العملياتُ العسكريةُ بنجاحٍ باهرٍ، فاستطاعَ خالدُ بنُ الوليدِ بعدَ شَهْرينِ ونِصْفٍ من بدءِ حركاتِهِ في جنوبيّ العراقِ أنْ يَصِلَ إلى الهدفِ الأولِ من خُطةِ التحريرِ العامّةِ، وهو احتلالُ مدينةِ الحِيرَةِ. ولكن اضْطرَّ إلى الوقوفِ هناك بسببِ أمورٍ حَدَثَتْ في الجَبْهةِ الشامِيَّةِ، وجعلتْ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضِيَ الله عنهُ يُعَدِّلُ خطةَ الفتوحِ العامّةِ مرة أُخْرى:

١ ــ الأمر الأول: أن جيشَ عِياضِ بنِ غَنْمٍ المكلّفَ بفتحِ العراقِ من شِمالِهِ، ما كاد يصل إلى «دُوْمَةِ الجَنْدَلِ» في طريقِهِ إلى «المُضَيَّحِ» حتى

اعْترضَتْهُ جيوشُ الغساسنةِ والعربِ الموالين للرومِ، ومنعته من التقدُّمِ في أراضيها، وأجبرَتْهُ على البَقَاءِ حيث هو. وهكذا أصبح الجيشُ الذي أوكِلَ إليه مهمةُ تحريرِ نصف العراقِ الشماليِّ، أصبح هو في حاجةٍ إلى من يَفُكُّ عنه الحَصارَ.. وقد قام بهذا خالدُ بنُ الوليدِ، ثم عاد إلى العراقِ يستأنفُ أعمالَهُ العسكريةَ.

٢ ــ الأمر الثاني: أن خالدَ بنَ سعيدِ بنِ العاصِ لم يَتَقَيَّدْ بالأوامرِ الصادرةِ إليهِ، والقاضيةِ بأن يكتفيَ على الجبهةِ الشاميةِ بقتالِ المُشاغلَةِ والإجهادِ على الحدودِ. فما كادَ يصلُ هذا القائدُ إلى «تَيْماءَ» حتى قامَ بحركاتٍ حربيةٍ واسعةِ النِّطاقِ. وقد أغراه الظَفَرُ الذي نالهُ على التَوَغُّلِ في البلادِ الشاميةِ حتى جاوزَ «البَلْقَاءَ» ووصلَ إلى

«حَوْرانَ»، فانسحبَ القائد الروميُّ «باهانُ» أمامَهُ مُتظاهراً بالهزيمةِ، وانطلقَ نحو دِمَشْقَ. وهو الفخُّ الذي كانوا قد نصبُوه للرسولِ الكريمِ يومَ تَبُوكَ فلم يَقَعْ فيه. لكن خالدَ بنَ سعيدِ بنِ العاصِ لم يَكُنْ في مِثْلِ حَذَرِ الرسولِ وحكمتِهِ، فما كادَ يرى الرومَ تنسحبُ إلى دِمشقَ حتى جدَّ في إثْرِهِمْ طامعاً أن يكونَ له شرفُ فتحِ الشامِ. وما إنْ وَصَلَ إلى مَرْجِ «الصُفَّرِ» قُرْبَ دمشقَ حتى أحاطَتْ بِهِ الجيوشُ الروميةُ من كلِ جانبٍ، وانقضتْ عليهِ فمزقَتْ جيشَهُ شَرَّ مُمَزَّقٍ. ولولا إسراعُ «عِكْرِمَةَ» على رأسِ حملةٍ لإنقاذِهِ، لَقُضيَ عليهِ قَضاءً مُبْرَماً.

كان لهذينِ الأمرينِ أثرُهُما في نفسِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ (ر)، فقرَّرَ بَعْدَ استشارةِ الصَّحابةِ مِمَّن كانوا معهُ في المدينةِ أن يُعَدِّلَ خُطّةَ الفتحِ العامَّةَ،

وأن يُحَوِّلَ الجُهدَ العسكريَّ نحوَ الجبهةِ الشاميةِ، لأنّه رأى أنَّ الأعمالَ العسكريةَ في الجبهةِ العراقيةِ لا يمكنُ أن تسيرَ بنجاحٍ إذا لم يُنْزِلْ بالجيوشِ الروميةِ في الشامِ ضربةً ساحقةً تجعلُها غيرَ قادرةٍ على عَرْقَلَةِ الجهْدِ العسكريِّ العربيِّ في الجبهةِ العراقيةِ.

وتنفيذاً للخُطةِ الجديدةِ أعلنَ الخليفةُ النفيرَ العامَّ في الحجازِ ونَجْدٍ واليَمَنِ. وشرعتْ جموعُ المجاهدينَ تتوافَدُ إلى المنورةِ من كلِ مكانٍ. فلما تَمَّ تَحَشُّدُها، ألّفَ الخليفةُ منها ثلاثَ فِرَقِ فرسانٍ، ثم عزّزَها برابعةٍ. وكانتْ قوةُ كلٍ من هذه الفِرَقِ تَتَراوحُ في أولِ الأمرِ بينَ ثلاثةِ آلافٍ، وسبعةِ آلافِ فارسٍ، يقودُها أمراءُ من خِيْرَةِ القُوّادِ المُحَنَّكين. وَوَجَّهَها جميعاً نحوَ الشامِ وَفْقَ خطةٍ هُجوميةٍ مُوَحَّدةٍ على النحوِ التالي:

١ - الفِرقةُ الأولى: قُوَتُها زُهاءُ ٤٠٠٠ مجاهدٍ، وقائدُها يزيدُ بنُ أبي سُفْيانَ، وخَطُّ حَرَكَتِها: المدينةُ ــــ تبوكُ ــــ البَلْقاءُ. وهدفهُها الأخيرُ دِمَشقُ.

٢ - الفِرقةُ الثانيةُ: قوتُها زُهاءُ ٧٠٠٠ مجاهدٍ، وقائدُها شُرَحْبيلُ بنُ حَسَنَةَ، وخَطُّ حركتِها: المدينةُ ــــ تَبُوكُ ــــ الأرْدُنّ، وهدفُها الأخيرُ بُصرى الشام عاصمةُ حَوْرانَ.

٣ - الفِرقةُ الثالثةُ: قوتُها زُهاءُ ٧٠٠٠ مجاهدٍ، وقائدُها أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرّاحِ، وخَطُّ حركتِها: المدينةُ ــــ تَبُوكُ ــــ البَلْقَاء، وهدفُها الأخيرُ مدينةُ حِمْصَ.

٤ - الفِرْقَةُ الرابعةُ: قوتُّها زُهاءُ ٧٠٠٠ مُجاهدٍ، وقائدُها عَمْرُو بنُ العاصِ، وخطُّ حركتِها:

المدينةُ ـــــ الوَجْهُ ـــــ العَقَبَةُ، وهدفُها فِلِسْطينُ.

وقد تَألَّفَتْ فيما بعدُ فرقةٌ أخرى بمنزلةِ احتياطٍ عامٍّ للفِرَقِ الأرْبَعِ جعلت تحت قيادة عكرمة بن أبي جَهْلٍ، وكانت قوتُها ٦٠٠٠ مُجاهدٍ.

وبلغَ الرومَ خبرُ الجيوشِ العربيةِ، فخرجَ هِرَقْلُ حتى جاءَ حِمْصَ، فحشَدَ قُواتِهِ، ثم قَسَمَها جيوشاً بعددِ الجيوشِ العربيةِ، فأرسلَ أخاه «تيودوريكَ» على رأسِ تسعينَ ألفاً لملاقاةِ عَمْرو بنِ العاصِ، وبعثَ «جَرَجَةَ» نحوَ يزيدَ بنِ أبي سُفيانَ، فعسكرَ بإزائِهِ، وبعثَ «الدّراقِصَ» نحو شُرَحْبيلِ بنِ حَسَنَةَ، وبعثَ «الفيقارَ بنَ نِسْطوسَ» في ستين ألفاً نحو أبي عُبَيْدَةَ بنِ الجرّاحِ.

ولما رأى القادةُ العربُ كَثْرَةَ جنودِ أعدائِهم أرسلوا إلى عَمْرِو بنِ العاصِ يستشيرونَهُ، فأشارَ عليهم هذا بالإجتماعِ، **فاتفقوا** على أن يكونَ اجتماعُهُمْ في اليَرْموكِ. وكتبوا بذلك إلى أبي بكرٍ، فأرسلَ إليهم بموافقَتِهِ.

* * *

في الوقتِ الذي كانت تَجري فيه هذه الإستعداداتُ العظيمةُ في الحجازِ، وأرتالُ الجيشِ العربيِّ تَتَوَغَّلُ في فِلسطينَ، كان جيشُ خالدِ بنِ الوليدِ الظافرُ يسيرُ راجعاً إلى الحِيرةِ بعدَ أن أخضَعَ المناطقَ الواقعةَ إلى غربيِّ الفُراتِ، والممتدةَ إلى الحدود السوريَّةِ. وما كاد هذا الجيشُ يَحُطُّ رِحالَهُ في قاعدةِ حركاتِهِ في أواخرِ سنةِ ١٢ للهجرةِ استعداداً لفتحٍ جديدٍ في الجبهةِ العِراقيةِ حتى جاء أمرُ الخليفةِ

بمسيرِ خالدِ بنِ الوليدِ بنصفِ جَيْشِهِ ليكونَ مَدداً لإخوانِهِ المجتمعينَ في اليَرْمُوكِ.

هذا مُخْتَصَرٌ للحوادثِ التي جَرَتْ قبلَ معركةِ اليرموكِ التي سنقرأ قِصَّتِها في الفصولِ القادمةِ.

أبو بكر يوجه خالداً إلى اليرموك

قِصةُ اليَرْموكِ أروع ما سجلَهُ العربُ بدمائِهِمْ وتَضْحِياتِهِمْ..

لو كانت قصةً من نَسْجِ الخيالِ، لكانت أعظمَ من ملحمةِ الإلياذةِ لشاعرِ اليونان «هوميروسَ» فكيف وهي قصةُ الواقعِ التاريخيّ بكلِ روعتِهِ وجلالِهِ؟!

إنها مَلْحمةُ البطولاتِ الرائعةِ التي ظهرتْ من الرجال والنساءِ معاً..

إنها ملحمةُ التضحيةِ والفِداءِ.. ملحمةُ العبقريةِ

العسكريةِ.. ملحمةُ إنكارِ الذاتِ، والطاعةِ والإنضباطِ الرائعَيْنِ.

ولكن من أينَ نبدأ بها؟

لعل أفضل البداياتِ هي التي تَتَّصلُ ببطلها العظيمِ خالدِ بنِ الوليدِ.

* * *

نحن إذن مع خالد بنِ الوليد..

المكان: مقرُّ القيادةِ العامةِ في الحِيْرةِ عاصمةِ المناذرةِ التي حرَّرَها خالدٌ من الحُكْمِ الفارسيِّ، واتَّخذها قاعدةً لعملياتِهِ العسكريةِ في جُنوبِ العراقِ.

الزمان: أوائلُ سنةِ ١٣ للهجرةِ.

يصل رسولٌ من المدينةِ المنورةِ يحملُ كتاباً إلى

القائدِ العامِّ في الجبهةِ العراقيةِ من قِبَلِ الخليفةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ.

يتناولُ خالدٌ الكتابَ و يقرأ:

«من أبي بكر إلى خالدِ بنِ الوليدِ.

«أما بعدُ: فإنه قد بَلَغني أنك تركْتَ عَسْكَرَكَ، وحَجَجْتَ سراً إلى مَكَّةَ من غير استئذانٍ وقد غفرتُها لك، ولكنْ إياك أن تعود إلى مثلِ ما فعلْتَ بعدَ اليوم. هذا، وإنّ جموعَ المسلمينَ باليَرْموكِ قد أنهكُوا عدوَّهُم، كما أنهكَهُم عدوُّهم، من غيرِ طائلٍ لأحدِ الطَرَفَيْنِ. وقد رأيتُ أن الأمرَ لا يَحْسِمُهُ إلا قائدٌ مُحَنَّكٌ مثلُك. فإذا وصلك كتابي هذا، فاقسِمْ جَيْشَكَ نصفَيْنِ، واترُكْ النصف الأول تحت إمرةِ المثنى بنِ حارثةَ الشيبانيِّ، وَلْيكُنْ في هذا النصف أهلُه العراقِ الذين كانوا فيه قبلَ قُدومِكَ عَلَيْهم، أما

النصف الآخرُ فَسِرْ بِهِ نحو اليَرموكِ لتكونَ مَدَداً لجيوشِ المسلمين هُناكَ.

«لقد كانتْ أعمالُكَ في العراقِ عظيمةً، فَأكمِلْ عَظَمَتَها في الشامِ، فإن اللهَ يُكْمِلُ لك الأجْرَ والثَّوابَ. واصدُقِ النيَّةِ يا أبا سليمانَ، وإياك أن يُخامِرَكَ الإعجابُ بنفسِكَ، فما أُعْجِبَ إنسانٌ بنفسِهِ إلا خَسِرَ وخُذِلَ. واعْلَمْ أن ما فَعلتَهُ حتى الآن ليس لك مِنَّةٌ به على أحدٍ، بَلِ اللهُ هو الذي يَمُنُّ عليك، وهو وَلِيُّ الجَزاء.

«العَجلَ العَجلَ يا أبا سليمانَ، فإن يوماً عظيماً في اليَرْموكِ. وإذا فَتَحَ اللهُ عليكُمْ، فَعُدْ بِمَنْ مَعَكَ إلى العراقِ، وإلى عَمَلِكَ فيه. والسلامُ».

و يطوي خالدٌ الكتابَ وهو يقولُ في غَضَبٍ:

ـ هذا واللهِ من عَمَلِ عُمَرَ بنِ الخطّاب.. هذا الأعَيْسرُ بنُ أمِّ شَمْلَةَ، حَسَدَني أن يكونَ فتحُ العراقِ على يَدِي، فأشار على أبي بكرٍ بتحويلي إلى الشامِ.

ولكن ماذا يفعل؟

ليس أمامَه إلا شيءٌ واحدٌ.. هو الإنضباطُ والطاعةُ. إنه جنديٌّ قَبْلَ كل شيءٍ، وعليه أن يُطيعَ الأوامرَ الصادرةَ إليهِ من القِيادةِ العامَّةِ.

وهكذا انصاعَ خالدُ بنُ الوليدِ لأمرِ قائدِهِ الأعلى على مَضَضٍ إذ كان يَوَدُّ لو أتاحَ له الخليفةُ فُرصَةَ نَيْلِهِ شَرَفَ لَقَبِ «فاتحِ العراقِ»، وكان واثقاً بنفسِهِ وبجيشِهِ في تحقيقِ هدفِهِ. ولِمَ لا؟ لقد ربحَ حتى الآنَ خَمْسَ عَشْرَةَ معركةً ضِدَّ الفُرسِ. وفي كل معركةٍ يربحُها يزداد العربُ قوةً، و يزدادُ أعداؤهُم

ضعفاً وخِذلاناً.. والفُرصةُ الآن سانحةٌ لكسبِ المعركةِ النهائيةِ الحاسمةِ ضدّ الفُرسِ، فمعنوياتُهُم في أقصى حالاتِ ضَعْفِها.. وقد بَلَغَ يأسُهُم غايتَهُ من ملوكِهِمْ بسببِ فسادِ الأسرةِ الحاكمةِ، ودسائسِ البلاطِ التي لا تَنْتهي. ومع كل ذلك نرى خالداً ينصاعُ لأمرِ الخليفةِ، و يُسَلِّمُ القيادةَ العامّةَ في الجبهةِ العراقيةِ إلى المثنى بنِ حارثةَ الشيبانيِّ، و يقولُ له في ساعةِ وَداعِهِ:

— إرجعْ إلى سُلطانِكَ غيرَ مُقَصِّرٍ ولا وانٍ.

* * *

كان أولُ عملٍ قامَ به خالدُ بنُ الوليدِ هو أنّه اسْتَدعى الكتائبَ القويّةَ التي كان قد جعلها مَسالِحَ ــأي حاميات ــ على المدن العراقيةِ المُنفَتِحةِ،

فاستدعى ضرارَ بنَ الخطَّابِ مع كتيبته، وضِرار بنَ الأَزْوَرِ مع كتيبتِهِ، وعاصمَ بنَ عَمْروٍ مع كتيبتِهِ المسماةِ الأهوالِ، وضمَّهم جميعاً مع الصحابةِ والقعقاعِ ابنِ عمروٍ إلى نصفِ الجيشِ الذي سيسيرُ بهِ إلى الشامِ. ولكنَّ المثنى بنَ حارثةَ الشيبانيَّ الذي سيَخْلُفُ خالداً في القيادةِ العامّةِ رفضَ هذه القِسْمَةَ لأنها لم تَتْرُكْ له إلا أَضْعَفَ الكتائبِ، فقال لخالدٍ:

ـ واللهِ لا أقبلُ الا بإنفاذِ أمرِ أبي بكرٍ كُلِّهِ، وهو أن نَقْسِمَ الجيش بيننا من غيرِ اصطفاءٍ وانتقاءٍ.

ومع أن خالداً كانَ يُدْرِكُ بعُمْقٍ أن المُهَمةَ التي نُدِبَ إليها شاقةٌ لا يَقْدِرُ عليها إلا أصلبُ الرجالِ، فإنه لم يشأ إغضابَ المثنى، وأرضاه بأن تركَ له بعضَ الصحابةِ، وفئةً لا بأس بها من ألمعِ القُوّادِ، منهم فراتُ بنُ حيّانَ العجليُّ، و بشيرُ بنُ الخَصاصيةِ

الذُهْلِيُّ، وعاصمُ بنُ عمروٍ التميميُّ، وغيرهُم من أولي النجدةِ والبأسِ الشديدِ.

* * *

تَحَرَّكَ خالدُ بنُ الوليدِ في أوائلِ صَفَرٍ سنةِ ١٣ هـ. ومعه زُهاءُ عَشَرَةِ آلافِ فارسٍ قاصداً الشامَ، وأخذَ يَطْعُنُ بجَيْشِهِ الخفيفِ في البَرِّ حتى انتهى إلى عَيْنِ التَّمْرِ، ثم إلى «قُراقِرَ»، وهي ماءٌ كان لبني كَلْبٍ. وعند ئذٍ تركَهُ المثنى بنُ حارثةَ الشيبانيُّ الذي كان قد خَرَجَ في رفقتِهِ مُوَدِّعاً، ليعودَ إلى الحيرةِ مَقَرِّ القيادةِ العامةِ خَلَفاً لَهُ.

طَلَبَ خالدٌ الأدِلاّءَ. فلما وقفوا بينَ يَدَيْهِ قالَ لَهُم:

ــ ما أقربُ طريقٍ يُوصِلُنا إلى اليَرموكِ؟

قال أحدُهُم:

ـ الطريق السُلطانيُ الشماليُ.

سألَ خالدٌ الدليلَ قائلاً:

ـ وبأيِّ البلادِ يَمُرُّ هذا الطريقُ؟

أجابَ الدليلُ:

ـ إنه يسيرُ محاذياً نهرَ الفراتِ إلى مدينةِ ديرِ الزَّوْرِ، ثم يُعَرِّجُ غرباً إلى تَدْمُرَ، فإلى بُصرى فإلى اليَرْموكِ.

قال خالدُ بنُ الوليدِ:

ـ ليس هذا بالطريقِ الذي أريدُ.. إنه طريق يَضْطَرُّني إلى الإصطدامِ بمسالحَ (حاميات) قويةٍ للعدوِّ في هذه المُدُنِ، فإن أنا تحاشَيْتُها لم آمَنْ أن تُهاجمني من الخَلْفِ، وإن أنا اشتبكْتُ معها للقضاء

عليها تأخَّرْتُ بذلك عن نجدةِ جيوشِ المسلمينَ في اليرموكِ.

وصمتَ خالدٌ قليلاً ثم قالَ:

ـ أريدُ طريقاً أخْرُجُ فيه من وراء الجيوشِ الروميةِ، و يوفرُ لي عُنْصُرَ المُباغَتَةِ.

قال آخرُ من الأدِلاء:

ـ أيها الأميرُ، هناك الطريقُ السلطانيُّ الجُنوبيُّ.. وهو طريقُ الحِيرةِ، فالنَّجَفِ، فَجَدِيدَةِ عَرْعَرٍ، فوادي السِّرْحانِ، فالبلقاء، فوادي اليَرْموكِ.

قال خالدٌ:

ـ وَ يْحَكَ يا هذا، أتُريدنا أن نعود إلى الحِيرةِ لنأخُذُ هذا الطريقَ بعد أن قطعنا ما يَقْرُبُ من ثلاثِمائةِ ميلٍ؟ لو كان هذا الطريقُ صالحاً لِمُهمتِنا لسلكتُهُ مُذْ كنّا في الحِيرةِ.

قال دليلٌ ثالثٌ:

ـ لا فيمكنُنا أيُّها الأميرُ أن نسلُكَ طريقاً يَتَوسَّطُ ذَيْنِكَ الطَّريقَيْنِ، فنمضي من هنا إلى الرَّحبةِ ثم إلى مَرْجِ راهِطٍ، ثم نُكملُ الطريقَ إلى وادي اليَرْموكِ.

قال خالدٌ وقد نَفِذَ صَبْرُهُ:

ـ وليس هذا بالطريقِ الصالحِ أيضاً، فإنه يمرُّ ببلادٍ آهلةٍ بالسكانِ المُعادِينَ لنا، فنُضْطَرُّ إلى قِتالِهِم، فننصرفُ عن هَدَفِنا، و يعلمُ عدوُّنا بمسيرِنا قبل أن نصِلَ إليهِ. وَيْحَكُمْ! إني أريدُ طريقاً لا يمُرُّ بأحدٍ.. طريقاً تَظَلُّ حركتُنا فيه طيَّ الكِتْمانِ حتى نخرُجَ على أعدائِنا من وراء ظهورِهِمْ.

وهنا تقدَّمَ أحدُ الأدِلاّء، وكان يُدعى رافعَ بنَ عُمَيْرةَ الطائي فقال:

ـــ أنا أعرفُ لك طريقاً بهذه الصفةِ أيُّها الأميرُ!

قال خالدُ بنُ الوليدِ يسألُ بلهفةٍ:

ـــ وأيُّ طريقٍ هذا يا رافعُ؟

قال رافعٌ:

ـــ إنه طريقُ قُراقرٍ، سُوَى، أرَكَ، تَدْمرَ، القريتين، حوارين، مرجِ راهِطٍ، بُصرى، وادي اليَرْموكِ.

قالَ خالدٌ:

ـــ هذا هو الطريقُ الذي أريدُ،فامضِ بنا فيه.

قال الدليلُ في شيءٍ من الخوفِ:

ـــ ولكنَّه ليس طريقاً صالحاً للجيوشِ أيُّها الأميرُ.. إنما يأخذه الأفرادُ في بعضِ الأحيانِ

مُضطرينَ. بل إن الراكب ليخافُ منه على نفسِهِ، وما علمْتُ أن جيشاً سلكَهُ قبلَ اليوم.

قال خالدُ بنُ الوليدِ:

ــ وهذا ما يزيدُني رغبةً فيه؛ لأن العدوَّ لن يتوقّعَ ظهورَنَا منه، وهذا مما يزيدُ في مباغتتِهِ، ويُربِكُ حركاتِهِ، ويُحبِطُ خُطَطَهُ.

قال الدليلُ الذي لم يُزايلْهُ خوفُهُ:

ــ أيُّها الأميرُ، إذا سلكْنَا هذا الطريقَ فإنَّ أمامنا خمْسَ ليالٍ لن نرى فيها ماءً. هذا إلى أنه طريقٌ غيرُ واضحِ المَعَالِمِ، وأخشى أن نَضِلَّ فيه، ولا سيما أنني مُصابٌ بالرَمَدِ.

قال خالدٌ والغضبُ بادٍ على أسَاريرِهِ:

ــ وَيْحَكَ! إنه واللهِ لا بُدَّ من ذلك.

ثم ٱلْتَفَتَ نحو الجيشِ وقال بصوتٍ جَهْوَرِيٍّ قَوِيٍّ:

ــ أيُّها المسلمونَ، لا تسمَحُوا للضَّعْفِ أن يَدِبَّ فيكم، ولا لِلْوَهَنِ أن يُسَيْطِرَ عليكم. واعلموا أن المعونةَ تأتي من اللهِ على قَدْرِ النيَّةِ، وأنَّ الأجْرَ والثوابَ على قَدْرِ المشقَّةِ، وأن المسلمَ لا ينبغي له أن يكترِثَ بشيءٍ مهما عَظُمَ ما دامَ اللهُ في عونِهِ.

وظهرَتِ الحماسةُ على الجيشِ فقال بعضُهُم:

ــ أيُّها الأميرُ، أنت رجلٌ قد جَمَعَ اللهُ لك الخَيْرَ، فافعلْ ما بدا لك، وسِرْ بنا على بَرَكَةِ اللهِ.

وبدا السرورُ والرِّضا على قَسَماتِ خالدٍ، فالْتَفَتَ إلى رافِعِ بنِ عُمَيْرَةَ وقالَ:

ــ قد ترى بنفسِكَ حماسةَ الجُنْدِ وعَدَمَ خوفِهِمْ، فما بالُك خائفاً وأنت الدليلُ؟!

أجاب رافعٌ في ٱستسلامٍ:

ــ الأمر لك أيُّها الأميرُ أولاً وآخراً. ولكنّ الطريقَ مَهْلكَةٌ، فينبغي أن نأخذَ للأمرِ عُدَّتَهُ.

ــ هذا واجبُكَ، فافعلْ ما تراهُ صالحاً في هذا الشّأنِ.

ــ فإني أطلبُ عشرينَ من أعظَمِ وأسمنِ الجِمالِ.

نادى خالدٌ بعضَ أعوانِهِ وقال:

ــ هاتوا لَهُ ما طلبَ.

فلما أحضِرَتِ الجمالُ قال رافعٌ:

ــ امنعوها الماءَ حتى تَظْمَأَ ويَجْهَدَها العَطَشُ، ثم اعرضُوها على الماء مرّةً ومرّتين حتى تَرْتَوِيَ وتَمْتَلِىءَ أكراشُها، فإذا امتلأتْ بطونُها ماءً فاقطعُوا مَشافِرَها (شِفَاهَهَا) لِئلاّ تَجْتَرّ.

قال خالدُ بنُ الوليدِ:

ــ وماذا تريدُ من ذلك؟

أجابَ الدليلُ الذكيُّ:

ــ ستكونُ بطونُ هذه الإبِلِ مستودعاتٍ ضخمةً للماء. فإذا عَطِشَتِ الخَيْلُ نَحَرْنا بعضَ الجِمالِ. فَسَقَيْنا الخَيْلَ من بطونها بعدَ مَزجِ الماء المخزونِ بشيءٍ من حليبِ النُّوقِ، ثم تكونُ لحومُ الإبِلِ المنحورةِ طعاماً للجنودِ.

قال خالدٌ بإعجاب!

ــ عظيمٌ! ولكنَّنا نحتاجُ إلى الماء من أجْلِ شُرْبِ الرجالِ أيضاً. فكيفَ السبيلُ إلى ذلك؟

أجاب رافعُ بنُ عُمَيْرَةَ:

ــ أما الرجالُ فلا بدَّ من أن يَحْمِلوا ماءهم معَهُمْ.

وهنا التفتَ خالدٌ إلى المسؤول عن أمورِ التموينِ وقالَ له:

اصدر للجنود أمراً بأن يحمِلوا معهم من الماء ما يستطعونَ.

العبور العظيم

ومضى خالدُ بنُ الوليدِ بجيشهِ وأثقالِهِ في الصحراء قاصداً (سُوى). فكلّما قطعَ مرحلةً شَقَ بطونَ عدد من الإبلِ، فأخذ ما في أكراشِها من الماء فسقاهُ الخَيْلَ، ثم شَرِبَ الجُنْدُ مما حَملوا معهم من الماء. وظلُّوا على ذلك أربعةَ أيامٍ. وكانت أوامرُ القائدِ قد صدرَتْ بألا يكونَ المسيرُ إلا لَيْلاً، وفي الصباحِ الباكرِ، وبعدَ العَصْرِ، أي في الأوقاتِ التي تَخِفُّ فيها حرارةُ الشمسِ، وذلك لتوفيرِ ما أمكنَ من الماء الثمينِ.

وفي اليومِ الخامسِ كانتْ قد نَفِذَتْ آخرُ قَطْرةٍ

من الماء الذي حملُوهُ معهم، وأصبحَ الجيشُ تحت رحمةِ المقاديرِ، مُهَدَّداً بالموتِ عَطَشاً.

طلبَ خالدُ بنُ الوليدِ رافعَ بنَ عُمَيْرَةَ وقال له:

ـ وَيْحَكَ يا رافعُ! لقد نَفِدَ الماءُ، وغدا الجيشُ كلُّه مُهدَّداً بالمَوْتِ، فماذا عندَكَ من الحيلةِ لهذا المأزقِ؟

قال رافعٌ مُطَمْئِناً:

ـ سنجدُ الماءَ اليومَ إن شاء اللهُ، ولكنّي أيها الأميرُ ضعيفُ البَصَرِ بسبب هذا الرَّمَدِ الذي أصابني منذُ أيامٍ كما ترى. فاطلبْ من الرجالِ أن يبحثوا في هذه النَّواحِي عن جَبَلَيْنِ صَغيرَيْنِ متجاورَيْنِ يُشْبِهانِ ثَدْيي المَرْأةِ.

التفتَ خالدٌ إلى أحدِ أعوانِهِ وقالَ له:

ـــ إمضِ معَ مَفْرَزَةٍ من الرجالِ فابحثوا عن هٰذيْنِ الجبلينِ.

ومضى الرجلُ لإنفاذِ الأمْرِ حتى غابَ عن الأنظارِ هو ومن مَعَهُ من الرجالِ.

وبعد دقائقَ عادَ الرجلُ ليقولَ للقائدِ:

ـــ أيُّها الأميرُ، لقد وجدْنا هٰذيْنِ الجبليْن إلى الغَرْبِ على مَسافةِ ألفِ ذراعٍ.

قالَ رافعُ بنُ عُمَيْرَةَ:

ـــ فابحثوا بينهما عن شجرةِ عَوْسَجٍ قصيرٍ لا ترتفع عن الأرضِ أكثرَ من ذراعَيْنِ.

قال خالدٌ لرئيسِ المَفْرَزَةِ:

ـــ أنْفِذوا كلَّ أوامِرِهِ.

ومضى فرسانُ المفرزَةِ الخِفافُ يبحثُونَ عن هذهِ

الشجرةِ في كلِّ ناحيةٍ، ولكنَّهُمْ عادوا بعدَ قليلٍ ليقولوا: لم نجد أثراً. لأي شجرٍ كان.

قال رافعٌ وقد بدا واثقاً بنفسِهِ:

ــ لا بُدَّ أن تَجِدوا هذه الشجرةِ، وإلّا فأنتُمْ والجيشُ كُلُّهُ هالكونَ.

قالَ خالدٌ:

ــ ابحثُوا عنها في كلِّ شِبْرٍ من الأرضِ، ولا تعودُوا إلا بعدَ أنْ تجدُوها.

وانطلقَ الرِّجالُ في كلِ مكانٍ، ثم عادَ بعضُهُم بعدَ ساعةٍ يقولُ:

ــ أيُّها الأميرُ، لقد عَثَرْنا على جَذْرِ شَجَرَةِ عَوْسَجٍ هَرِمَةٍ لا يكادُ يَظْهَرُ فوقَ الأرضِ.

قال رافعٌ وقد تهلَّلَ وجهُهُ سروراً:

ـــ أبْشِرْ أيها الأميرُ، ستشربُ اليومَ ماءً عذباً إن شاءَ اللهُ.

ثم ٱلْتفتَ إلى رجالِ المَفْرَزَةِ وقالَ لَهُمْ:

ـــ احفِروا قريباً من جَذْرِ تلكَ الشجرةِ.

انطلقَ الرجالُ لإنفاذِ الأمْرِ، وتبعَهُمْ على مَهَلٍ القائدُ وأركانُ حربِهِ والدّليلُ.

وما كادتِ المعاولُ تمضي في الأرضِ الهشَّةِ مِقدارَ ذِراعٍ أو ذِراعَيْنِ، حتى نَبَعَ الماءُ النَّميرُ.

صاحَ الرجالُ جميعاً:

ـــ اللهُ أكْبَرُ.. اللهُ أكبرُ!

قال رافعُ بنُ عُميرةَ وهو لا يَمْلِكُ نفسَهُ من الفَرَحِ:

ـــ أيُّها الأميرُ، واللهِ ما وَرَدْتُ هذا الماءَ مُنْذُ

ثلاثينَ سَنَةً، وما وَرَدْتُهُ إلا مرةً واحدةً وأنا غلامٌ مَعَ أبي.

قالَ خالدٌ وهو لا يَكْتُمُ إعجابَهُ:

ــ بارَكَ الله فيك يارافعُ! واللهِ إنك لأمْهَرُ دليلٍ عرفتُهُ في حياتِي.

* * *

ما إن انتهى الجُنودُ من الشُّربِ وسِقايَةِ ما معهم مِن خَيْلٍ وإبلٍ، حتى صدرتْ أوامرُ القائدِ بالمسيرِ نحو «سُوى» وهو ماءٌ كانت تُعَسْكِرُ حولَهُ قبيلةٌ عربيةٌ اسمها قبيلةُ بَهْراءَ.

فاجأ خالدُ بنُ الوليدِ البَهْرانيِّينَ قُبَيْلَ الصُّبْحِ، وكانتْ **معركة** سريعةٌ انتهتْ بِهزيمَةِ بَني بَهْراء، واستيلاء خالدٍ على كلِ **ما** خَلَّفُوهُ من مالٍ وعَتادٍ.

وسارَ خالدٌ مِن «سُوى» نحو وادي اليَرمُوكِ كأنَّهُ العاصفةُ الهَوْجاء تكتسحُ كلَّ ما في طريقِهَا. فما كاد يصل «أرَكَ» حتى صالحَهُ أهلُها، أما «تَدْمُرُ» فقد تحصَّنَتْ حامِيَتُها أوّلَ الأمرِ مُعْتَدَّةً بأسوارِهَا المتينَةِ، ثم لم تجِدْ بُدّاً مِن الإِسْتِسْلامِ وَطَلَبِ الصُّلْحِ.

وانطلقَ خالدُ من تَدْمُرَ نحو «القَرْيَتَيْنِ» فقاتَلَ أهلَها، وظَفِرَ بِهِمْ، وغَنِمَ. ثم أتى «الحوارينَ» فقاتَلَهُم، وقَتَلَ وسَبَى، ومضى منها إلى «قُصَمَ» فصالَحهُ أهلُها، وهُمْ بنو مَشْجَعَةَ من قبيلة قُضَاعَةَ، وهكذا حتى وصلَ إلى مَرْجِ راهطٍ، فأغار على سُكَّانِهِ، وهم الغَسَاسِنَةُ، في يومِ عيدِهِمْ، فقتلَ مِنْهم وسَبَى، وانتسَفَ عَسْكَرَهُم وعِيالاتِهِمْ، ونَزَلَ بالمَرجِ أياماً، ثم خَرَجَ من المرجِ إلى بُصْرى،

ففتَحَها، فكانت أولَ مدينةٍ افْتُتِحَتْ بالشامِ على يَدَيْ خالدٍ. ثم خَرَجَ منها حتى وَصَلَ إلى المسلمينَ وهم مُعَسْكِرونَ بإزاء الرومِ في وادي اليَرْمُوكِ.

وهكذا قَطَعَ خالدُ بنُ الوليدِ المسافةَ بين عَيْنِ التَّمْرِ في جُنوبِ العِراقِ، ووادي اليَرْمُوكِ في الشامِ، وهي مَسافةٌ تَزيدُ على ألفِ كيلومترٍ، في ثمانيةَ عَشَرَ يوماً فقط. فكانت حركَتُهُ في قَطْعِ هذه الصحراء مُعجزةً من مُعجِزاتِ الحَرَكاتِ السَّوْقِيَّةِ (الإستراتجية)، وأعجوبةً من أعاجيبِ المُخاطرةِ التي لا يُقْدِمُ عليها إلا من وَهَبَهُ اللهُ ما وهبَهُ لخالدٍ من صِفاتِ البطولةِ الخَارِقَةِ.

* * *

قيادة موحدة

كان الوقتُ ليلاً.

وعلى الرُّغْمِ من الضَّوْء الخافتِ الذي كان يَمْلأُ جَوَّ الخَيْمَةِ، فقد كان الناظرُ يستطيعُ أن يُمَيِّزَ سِتَّةَ أشخاص ٍجَلَسُوا في شِبْهِ دائرةٍ، وهم: أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرّاحِ قائدُ الجَيْشِ الأولِ، وشُرَحْبيلُ بنُ حَسَنَةَ قائدُ الجيشِ الثاني، ويزيدُ بنُ أبي سفيانَ قائدُ الجيشِ الثالثِ، وعمرُو بنُ العاصِ قائدُ الجيشِ الرابعِ، وعِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ قائدُ جيشِ الإحتياطِ، وخالدُ بنُ الوليدِ قائدُ الجيشِ العراقيِّ الذي جاء مَدَداً لجيوشِ اليَرْموكِ.

وبَدَأ عمرُو بنُ العاصِ الكلامَ فقالَ:

ـ إنَّ أموراً جديدةً قد حَدَثَتْ، فرأيتُ من واجِبي أن أجمَعَكُمْ لأطْلِعَكُمْ عليها..

وسكتَ قليلاً كأنه يَجْمَعُ أفكارَهُ، ثم استأنَفَ يقولُ:

ـ كلُّكُمْ يعلمُ حَرَاجَةُ المَوْقِفِ الحربيِّ الذي يَقِفُ فيه الرومُ منذُ أكثرَ مِنْ شهرٍ، فأمامَهُمْ وادي اليَرْموكِ الذي يَفْصِلُ بينَنا وبَيْنَهم كأنَّه خَنْدَقٌ هائلٌ لا يُمكن اجْتيازُهُ، وخَلْفَهُمْ وادي الواقوصَةِ السَّحِيقُ الذي يَبْدو كأنَّه بِئْرٌ عميقةٌ. وقد شَعَرَ قادَتُهُمْ بأنهم في مَوْقِفٍ لا يُحْسَدُونَ عليهِ، كما شَعَرُوا أن هذه المعارِكَ الصَّغيرةَ المُتقطعةَ التي تَنْشُبُ بيننا وبينهم من يومٍ إلى آخرَ لا جَدْوى منها، فقرروا كما أفادَتْني

تقاريرُ جَواسيسي أن يَخوضوا معنا غداً معركةً حاسمةً بكلِّ قواتِهِمْ.

قالَ أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرّاحِ:

ـ لَوْ لم يُقَرِّرِ الرومُ ذلك لكانَ عَلَيْنا نحنُ أن نقرِّرَهُ. فإذا كان جنودُهُم قد ضَجِروا من هذا الحصارِ الذي ضَرَبْناه عَلَيْهم، فإن جُنُودَنا قد ضَجِرُوا أيضاً من هذا الجمودِ في المَوْقِفِ، ومن هذا الوَقْتِ الذي يَمُرُّ دونَ نتيجةٍ حاسمةٍ. إن المَلَلَ قد بدأ يَتَسَرَّبُ إلى نُفوسِ جُنودِنا.. وإنَّ فَوْرَةَ الحماسَةِ لِلْقتالِ قد بدأتْ تَضْعُفُ. وهذه المناوَشَاتُ المتفرقةُ التي جَرَتْ بَيْنَنا وبين الرومِ مُنْذُ أكثرَ مِن شهرٍ لم تَسْتَطِعْ على الرُّغمِ مِن انتصارنا فيها كلِّها أن تَحْتَفِظَ بنيرانِ الحماسةِ مؤجَّجَةً في صدورِ رجالِنا. وأخشى إذا طالَ الأمرُ أكثر من ذلك ألا يبقى عند الرِّجالِ

رغبة في القِتالِ. فإذا كان الرومُ قد قَرَّروا خوضَ المعركةِ الحاسمةِ فإن هذا ما نَرْغَبُ نحن فيه أيضاً.

قال عَمْرُو بنُ العاصِ:

ــ إذن ترى يا أبا عُبَيْدَةَ أن نقْبَلَ خوضَ المعركةِ الحاسمةِ معهم غداً؟

أجابَ أبو عُبيدةَ:

ــ هذا هو رأيي.

قال عمرُو بنُ العاصِ:

ــ ولكنْ يلزمُ من هذا أن نَفُكَّ عنهم الحِصارَ لِتَخْرُجَ كلُّ جموعِهِمُ الجَرّارَةِ لِقِتالِنا..

قال أبو عُبَيْدَةَ:

ــ الظاهرُ أنه لا بُدَّ من ذلك، وإلاّ عُدْنا إلى المناوشاتِ المحدودةِ التي لا جَدْوى منها.

قال عمرُو بنُ العاصِ:

ــ قد عَرَفْنا رأيَ أبي عُبَيْدةَ.. ولْنَسْمَعِ الآن رأي أبي سُلَيْمانَ.

قالَ خالدُ بنُ الوليدِ:

ــ سأتكلمُ بعدَ أن أسمعَ الآخَرِينَ.

قال عمرُو بنُ العاصِ:

ــ إذن لِنَسْتَمِعْ إلى يَزيدَ بنِ أبي سُفيانَ.

قالَ يزيدُ:

ــ الرأيُ عِندي أن نَظَلَّ مُتمسكينَ بِخُطَةِ الحصارِ الذي ضَربناهُ على الرومِ في خَنَادِقِهم؛ لأننا إذا سَمَحْنا لهم بالخروجِ من هذه الخنادقِ فلا أظنُّ أننا قادرونَ على جُيوشِهِم الجرارةِ. إن جُيوشَنا الأربعةَ مع جيشِ عِكْرِمَةَ الإحتياطيِّ لا تَزيدُ قوتُها

على ستةٍ وثلاثينَ ألفَ مُقاتلٍ، في حينِ تَبْلُغُ الجيوشُ الروميةُ مِأتينِ وأربعينَ ألفاً. والمَدَدُ الذي جاءنَا به خالدٌ لم يُفِدْنا كثيراً، لأن مَدَداً مقابلاً جاء للروم تحتَ قيادةِ «باهانَ». وفي مثل هذا التفاوتِ الكبيرِ في القُواتِ يكونُ التمسكُ بالحصارِ المفروضِ عَلَيْهِم أفضلَ خطةٍ لجيشٍ في مثلِ حالِ جيشِنا.

قال عمرُو بنُ العاصِ يسألُ شُرَحْبيلَ بنَ حَسَنَةَ:

ـ وما رأيُكَ أنتَ يا شُرَحْبيلُ؟

أجابَ شُرَحْبيلُ:

ـ أنا معَ يزيدَ بنِ أبي سفيانَ.

قال عمرُو:

ـ وأنتَ يا عِكْرِمَةُ؟

أجابَ عِكْرِمَةُ:

ــ أنا مع أبي عُبَيْدَةَ.

فقال عمرُو:

ــ قد سمعْتَ يا خالدُ آراء القومِ، فهاتِ رأيَكَ الآنَ.

قال خالدُ بنُ الوليدِ:

ــ لا أظنُّ أن أمْرَ المعركةِ الحاسمةِ مما يحتاجُ إلى هذا الجدالِ الطويلِ. فهذه المعركةُ قادمة شِئْنا ذلك أم أبَيْنا. وإذا لم نَخُضْها غداً فسوف نخوضُها بعدَ غدٍ. أما كثرةُ جنودِ الأعداءِ فليس لها وزنٌ في المعركةِ، فكم من فِئَةٍ قليلةٍ غلبَتْ فِئَةً كثيرةً بإذن اللهِ. والنصرُ في الحروبِ لم يكنْ أبداً لِمَنْ كَثُرَ عَدَدُهُ، بل كانَ لِمَنْ آمنَ بما يقاتِلُ من أجلِهِ، وصَدَقَ النِّيَةَ، وصَمم على النَّصْرِ، وأعَدَّ للأمْرِ عُدَّتَهُ.

قال أبو عبيدة يسأله:

ـ وماذا تعني يا أبا سُليمانَ بقولكَ «أعدَّ للأمرِ عُدَّتَهُ»؟

أجاب خالدٌ:

ـ إنك تعلمُ يا أبا عُبيدةَ، كما يعلمُ الآخرونَ، أن هِرَقْلَ قد أصْدَرَ أمرَهُ بتوحيدِ الجيوشِ الروميةِ تحتَ إمْرَةِ أخيهِ «تيودوريكَ». وجعلَ على مُقَدَّمَةِ هذا الجيشِ المُوحَّدِ «جَرَجَةَ» وجعلَ على جَناحَيْهِ «باهانَ» و «الدراقِصَ»، وجعلَ «الفيقار» أميراً على العَمَلياتِ الحَرْبيَّةِ. وفي هذه الحالةِ يكونُ من غيرِ الحِكْمَةِ، ومن خَطَلِ الرأي، أن نقاتِلَ جيشاً مُوحَّداً بستةِ جيوشٍ مُتَفرقةٍ.

ـ ماذا تعني بكلامِكَ هذا؟

أعني أن نوحّدَ قيادَتَنا كما وَحَّدَ الرومُ قيادَتَهمْ؛

فالنصرُ لن يكونَ من نصيبِنا إذا ظَلِلْنا جيوشاً سِتَّةً تُقاتِلُ على غيرِ هُدىً، ولا يَعْلَم أميرٌ من أمرائِهَا بما يفعلُ زُمَلاؤُهُ الآخرونَ. سيكونُ النصرُ من نصيبِ الطَّرَفِ الذي هو أكثر نِظاماً وأكملُ انسجاماً.

ــ ولكنَّ في ذلك مُخالفةً لأوامرِ أبي بَكْرٍ.

ــ إن أبا بكرٍ لا يرى ما تَرَوْنَ.. إنه بعيدٌ عن الأحداثِ، ولا عِلمَ له بالتطوراتِ التي طَرَأَتْ على الموقفِ الحربيِّ.. إنه أمَّركم على جيوشٍ مُتفرقةٍ لأنه بعثَكُمْ إلى جهاتٍ مختلفةٍ. لكن الوَضْعَ قد تَغَيَّرَ؛ فأنتم الآنَ في حقلِ معركةٍ واحدٍ، وتواجهون عَدُوّاً منظّماً، موحّدَ القيادةِ، متناسقَ العملياتِ. ولو رآكم في موقِفِكُمُ الجديد هذا لأمَرَكُمُ بالذي أنْصَحُكم بِهِ. وعلى كل حالٍ فإنَّ أبا بكرٍ لا يُهِمُّهُ أمرُ القيادَةِ بمقدارِ ما يُهِمُّهُ أنْ تَنْتصِرُوا على عدوِّكُمْ.

إن الغايةَ هي النَّصْرُ، أما الوسليةُ إلى ذلك فأمرٌ ليسَ بذي خَطَرٍ، ولن يَلومَكُم عليهِ.

قالَ يزيدُ بنُ أبي سُفيانَ:

ـ ولكنَّ أوامِرَ أبي بكرٍ تَقْضي أن يكونَ كلُّ قائدٍ منا أميراً على أحدِ البلدانِ الشاميةِ التي نَرْجو أن يَفْتَحَها اللهُ علينا. وأنتَ تدعونا إلى أنْ نَدينَ إلى أميرٍ واحدٍ، فبأيِّ حَقٍ تفعلُ ذلك؟ وبأيِّ حقٍّ تَحرُمُ كلَّ أميرٍ من شَرَفِ الإمارةِ التي أوكِلَتْ إليه؟

قال خالدٌ بصرامةٍ:

ـ أيُّها الناسُ، إن أبا بكرٍ لو يعلمُ بحقيقةِ الموقفِ الذي نحنُ فيه لأمرَنا بما أشيرُ عليكم بهِ، فهذا التَعَدُّدُ في القيادةِ أشدُّ ضرراً على العربِ من كَثْرَةِ جُنودِ عدوِّهم، فلا تسمحُوا للمنافِعِ الدُّنْيَويَّةِ

أن تُفَرِّقَ بينَكُمْ. وعلى كلِ حالٍ، فأنا لم أقترِحْ عليكم أن يكونَ أميرُ المعركةِ غداً أميراً على كلِّ البلادِ المفتتحةِ، فإذا فتحَ الله علينا غداً رجعَ كلٌّ منا أميراً على جيشِهِ، وعلى البلدِ المُخصَّصِ له. وعندئذٍ فلا يُهِمُّهُ أن تكونَ إمارتُهُ على هذا البلدِ نتيجةَ معركةٍ قادَهَا هو، أو عَمِلَ فيها تحتَ قِيادةِ غيرِهِ. وإذا أحبَبْتُم التَّمسُّكَ بإماراتِكُمْ فهناك حَلٌّ يمكنُهُ أن يرضِيَ الجميعَ.

سألَ يزيدُ قائلاً:

ــ وما هو؟

أجابَ خالدٌ:

ــ نتعاوَرُ الإمارةَ، فيكونُ عليها واحدٌ منا غداً، ويكونُ عليها آخرُ بعدَ غدٍ، وهكذا حتى يتأمَّرَ الكلُّ، أو يفتحَ اللهُ عَلَينا.

قال عمرُو بنُ العاصِ:

ـ أنا على رأيِ خالدٍ.. فمن تقترحونَ ليكونَ أميرَنا غداً؟

بادرَ خالدٌ يقولُ:

ـ دَعُوا إمارةَ الغدِ لي.

قال أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ:

ـ أنا موافقٌ.

فقال الآخرون:

ـ ونحن موافقونَ

قال خالدٌ:

ـ فلنبدأ إذن بإعدادِ الخطةِ.. لقد رأيتُ من تَجارِبي في الجبهةِ العراقيةِ أنه كلما زاد عددُ أفراد الجيشِ ثَقُلَتْ حرَكَتُهُ، وأصبحَ أمرُ قِيادتِهِ والتحكم

في حركاتِ قِطعاتِهِ أكثر عُسْراً. لذا رأيتُ أن أدْخِلَ بعضَ التعديلِ على التَّعْبِئَةِ بحيثُ تُلائمُ جيشاً تعدادُهُ ستةٌ وأربعونَ ألفاً كجيشِنا الحاليّ.

قال عمرُو بنُ العاصِ:

ــ ألا تخشى أيُّها الأمير أن يُحدِثَ التعديلُ بعضَ الإرباكِ للرِّجالِ الذين اعتادُوا تعبئةً مُعَيَّنَةً؟

قال خالدٌ:

ــ إنه أمرٌ لا بُدَّ منه، فالتعبئةُ التي تَصْلُحُ لجيشٍ عِدَّتُهُ عَشَرَةُ آلافٍ لا تصلُحُ لجيشٍ عِدَّتُهُ أربعونَ ألفاً.

قال أبو عُبيدةَ يسألُ:

ــ وما تعبئتُكَ الجديدةُ يا أبا سُليمانَ؟

أجابَ خالدٌ:

ـ سأقسِمُ الجيشَ كلَّهُ إلى كَرَادِيسَ، يتألفُ كلُ كردوسٍ من ألف رجلٍ، وسأجعلُ على كلِ كُردوسٍ أميراً من أَولي النجدةِ والبأسِ. وكلُّ مجموعةٍ من الكراديسِ تؤلفُ قطعةً من قِطَعاتِ الجيشِ وتَخْضَعُ لقائدٍ مُعَيَّنٍ.

وسكت قليلاً كأنَّه يرسُمُ في مخيلتهِ صورةَ التعبِئَةِ. ثم استأنفَ يقولُ:

ـ ستكونُ أنتَ يا أبا عُبيدةَ قائد القَلْبِ، وتَحْتَ إمرتِكَ خمسةَ عَشَرَ كُردوساً، وأما أنت يا عَمْرُو فستكونُ قائدَ المَيْمَنَةِ، وتحت إمْرَتِكَ خمسةَ عَشَرَ كُردوساً، و يعاونُكَ شُرَحْبِيلُ بنُ حَسَنَةَ، وأما أنتَ يا يَزيدُ فستكونُ قائدَ المَيْسَرَةِ، وتحت إمرتِكَ عَشَرَةَ كَرَاديسَ. و يَبْقى أحدَ عَشَرَ كُردوساً تكونُ احتياطاً في الساقةِ تحتَ قيادةِ عِكْرِمَةَ.

قال أبو عُبيدةَ يسألُ:

ـ وكيفَ ستكون إدارةُ المعركةِ؟

أجابَ خالدٌ:

ـ سأكون أنا في القَلْبِ لأديرَ المعركةَ منه، وسأصدِرُ أوامري إلى قوادِ القِطَعِ الرئيسيةِ: القَلْبِ والجَنَاحَيْنِ والسَّاقةِ، وعليهم هم أن يُصْدِرُوا أوامِرهُمْ إلى قادةِ الكراديسِ.

واستأنفَ أبو عبيدةَ يسألُ:

ـ أتعني أن قائدَ القطعةِ يستطيعُ أن يصدرَ إلى قادةِ الكراديسِ أوامرَ مختلفةً بالهجوم ِوالإنسحابِ؟

أجاب خالدٌ:

ـــ نعم، هذا ما أعنيهِ بالضَّبْطِ. فكلُّ قائدِ قطعةٍ منكم يستطيعُ أن يصدِرَ أوامرَ مختلفةً إلى كراديسِهِ العَشَرَةِ التي هي تحتَ إمرتِهِ، فيأمُرُ كُردوساً بالهجومِ، و يأمرُ كُردوساً آخرَ بالتوقُّفِ أو الإنسحابِ، بالشكلِ الذي يراهُ ملائِماً لسيرِ المَعركةِ، وللأوامِرِ الصادرةِ مني لتحقيقِ الخطةِ التي سَنُعِدُّها الآنَ. وبهذا يصبحُ كلُّ كُردوسٍ كأنَّهُ قِطعةٌ مستقلةٌ، يتحركُ أماماً أو خلفاً دونَ التقيُّدِ بحركةِ بقيةِ الكراديسِ. وبهذا الشكلِ يبدو جيشُنا كأنه ستةٌّ وأربعونَ قِطْعَةً لا أربعُ قِطَعٍ، كما أنه سيكونُ خفيفَ الحركةِ، وأكثَرَ مُرونةً، وأقدرَ على الحركةِ بما يتلاءمُ وسيرَ المعركةِ.

وقضى خالدُ بنُ الوليدِ شَطراً من الليلِ مع أركانِ حربه في رَسْمِ خُطَّةِ المعركةِ ليوم الغدِ.

الجولة الأولى: حرب سجال

لم ينفَضَّ المجلسُ العسكريُّ تلك الليلةَ إلا بعدَ أن تَمَّ ترتيبُ كلِّ شيءٍ، وأنهى خالدُ بنُ الوليدِ رسمَ أدقِّ التفاصيلِ للمعركةِ المقبلةِ، فقسمَ الجيشَ إلى ستةٍ وأربعينَ كُردوساً، وحدّدَ لكلِّ كُردوسٍ أميرَهُ، واستُدْعِيَ أمراءُ الكراديس ليُبَلَّغوا أوامرَ تَعْيينِهِمْ، وليَعرفَ كلٌّ منهم المكانَ المخصَّصَ لكُردوسِهِ، والقطعةَ التي يتبعُها في هذهِ التعبئةِ الجديدةِ.

وكانَ من جُملةِ أمراءِ الكراديسِ عِياضُ بنُ غَنْمٍ قائدُ أحدِ الجيشَيْنِ اللذَيْنِ كُلِّفا بالعَمَلِ في الجبهةِ العراقيةِ، والقعقاعُ بنُ عَمْروٍ التميميُّ البطلُ

المشهورُ وقائدُ الكتيبةِ الخرساءِ، وعبْد الرحمنِ بنُ خالدِ بنِ الوليدِ، ولم يكنْ له من العُمُرِ يَوْمئذٍ أكثرُ من ثمانيةَ عَشَرَ عاماً.

ومنذُ فجرِ اليومِ التالي بدا في مُعسكرِ العدوِّ ما يُشيرُ إلى أنه عازمٌ على خَوْضِ معركةٍ شاملةٍ؛ فما كاد جُنودُهُ يَنْهضون من نَوْمِهِمْ على أصواتِ الأبواقِ حتى راحوا يُعِدُّون مُعِدَّاتِهِمْ الثقيلةَ لعبورِ الوادي، ويتقلَّدون أسلحتَهُم المختلفةَ، كما راحَ فرسانهُمُ يُهَيِّئونَ خُيولَهُم ويَتَفَقَّدُون سيوفَهُمْ ورِماحَهُمْ.

وفي أثناءِ ذلك كانَ خالدُ بنُ الوليدِ يقفُ على مُرْتَفَعٍ من الأرضِ ومعه أركانُ حَرْبِهِ يُراقبونَ استعدادات الجيشِ العربيِّ، وعمليّاتِ التعبئةِ التي رُسِمَتْ في الليلةِ الماضيةِ. وما كادتِ الكراديسُ تأخذُ أمكنتَها المخصَّصَةَ لها، ويَقفُ كلُ أميرٍ على

رأسِ كُردوسِهِ، حتى امتطى خالدٌ حصانَهُ، وامتطى الآخرونَ خيولَهُم، ومضى الجميعُ على مَهَلٍ لتَصَفُّحِ الجَيْشِ، وإصلاحِ ما قد يكون وَقَعَ من خَلَلٍ في عَمَليةِ التَّعْبِئَةِ.

وبدأ خالدٌ بالمَيْمَنَةِ، فلما انتهى من تَصَفُّحِها أمَرَ عَمرو بنَ العاصِ الذي كان يمشي خلفَهُ أن يقفَ على رأسِها، وأمرَ شُرَحبيلَ بنَ حسنةَ أن يكونَ مساعداً له في قيادتِها، ثم مضى إلى المَيْسَرَةِ ففعلَ بها ما فعلَ بالميمنةِ، وأمر يزيدَ بنَ أبي سُفيانَ أن يقفَ على رأسِها ليقودَها، ثم انعطفَ بمن بَقِيَ معه من أركانِ حربِهِ نحو القَلْبِ مقرِّ قِيادتِهِ العامَّةِ حيثُ نُصِبَتْ له خيمةٌ كبيرةٌ.

بعد ساعَتَيْنِ كاملَتَيْنِ من الإستعداداتِ نفخَ الرومُ في أبواقِهِمْ إيذاناً ببدء عُبورِ قُواتِهِمْ، فأمرَ خالدٌ

بألا يَتَعَرَّضَ لهم العربُ حتى يَتِمَّ عُبورُهُم، كما أصدرَ أمرَهُ إلى «المِقْدادِ» قارىءِ الجيشِ بأن يَبْدَأ مع الجنودِ بقراءةِ سورَةِ الجِهادِ، أي سُورَةِ الأنْفالِ، وهذهِ سُنَّةٌ سَنَّها رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ بعد معركةِ بدرٍ الكبرىٰ. وفي صوتٍ واحدٍ مَهيبٍ راحَ سِتَّةٌ وأربعونَ ألفَ رجلٍ يَتْلُونَ آياتِ القرآنِ الكريمِ التي أفعَمَتِ القلوبَ بالخُشوعِ، وخلعَتْ على الجيشِ العربيِ لِباساً رائعاً من المهابةِ والجلالِ.

وما كادَ الجنودُ يُنهون التلاوةَ حتى بدأتْ فرقةُ القاصِّينَ المُحَمِّسينَ مُهِمَّتَها وعلى رأسِها أبو سُفيانَ الذي كان يتنقلُ من كُردوسٍ، إلى كردوس وكلما وقفَ على كردوسٍ قال:

اللهَ اللهَ! إنكم أبطالُ العربِ وأنصارُ الإسلامِ، وإن أعداءكُم أبطالُ الرومِ، وأنصارُ الشَّيْطانِ.

اللهمَّ إن هذا يومٌ من أيامِكَ ؛ اللهمَّ أنزِلْ نصرَكَ على عِبادِكَ !

ومضى على ذلك ساعةٌ تقريباً حين أقبلَ أحدُ المراسلينَ لِيُخبرَ القائدَ العامَّ بأن الرومَ قد أتموا عبورَهُم ووقفُوا بتعبئتِهِم الكاملةِ، فنهضَ خالدٌ من مجلسِهِ، وركبَ جوادَهُ «الأشْقَرَ»، وسارَ نحو المُقدِّمَةِ لِيُشْرِفَ على الجيشِ الروميِّ، ويَرى تَعبئَتَهُ التي خَرَجَ بها، وسارتْ وراءهُ فصيلةُ المُراسِلِينَ لِتنقلَ أوامرَهُ إلى قِطَعاتِ الجيشِ وكراديسِهِ المختلفَةِ.

ونظرَ أحدُ المراسِلِينَ المرافقينَ للقائدِ إلى الجيشينِ فهالَهُ قِلَّةُ عَدَدِ الجيشِ العربيِّ، وكثرةُ الجيشِ الروميِّ الذي مَلأَ الوادي، فقال متعجباً:

ــ ما أكثرَ الرومَ وأقلَّ المسلِمينَ!

فَنَهَرَهُ خالدٌ وقال:

ـــ وَيْحكَ يا هذا! بَلْ قُلْ: ما أقلَّ الرومَ وأكثرَ المسلمينَ! إنما تكْثُرُ الجنودُ بالنصرِ، وتَقِلُّ بالخذلانِ، لا بعَدَدِ الرجالِ. واللهِ لو كان جَوادي «الأشقرُ» بريئاً من هذا الوَجَعِ الذي أصابَهُ في باطِنِ حافِرِهِ من كَثْرَةِ الجَرْيِ، لما اكترثْتُ أن يكونَ الرومُ ضعفَيْ عَدَدِهِم هذا!

وفي هذه اللحظةِ بدأ المُراسلونَ يَتواردونَ من مُختلِفِ قِطَعِ الجيشِ يحملونَ إلى القائدِ العامِ إشعاراً واحداً، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام، وأنَّ جميعَ الكراديسِ على استعداداً لإنفاذِ أيِّ أمرٍ يصدرْ إليها.

وحينئذٍ أصدَرَ خالدٌ أمرَهُ إلى عِكْرِمَةَ بنِ أبي جَهْلٍ والقعقاعِ بنِ عمروٍ بأن يُنْشِبا القتالَ

بكُردوسَيْهِما، وكانَ الأولُ على مُجّنبَةِ القَلْبِ اليُمْني، وكان الآخرُ على مجنّبَةِ القَلْبِ اليُسرى. وانطلقَ المراسلانِ يحملانِ الأمرَ إلى أمِيرَي الكُردوسَيْنِ اللذين ما كادا يَتَبَلَّغانِهِ حتى صاحا:

ـــ اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ!

وانقضّا بجنودِهِما نحو الأعداء كصاعِقَتَيْنِ تَنْقَضّانِ من السماءِ.. وصَهَلَتِ الخَيْلُ، وقَعْقَعَتِ السيوفُ، وعلا الغُبارُ، وتصايَحَ الرِّجالُ، وبدأتِ المعركةُ.

وفي هذه اللحظةِ، وبينما بقيةُ قطعِ الجيشِ تتحفَّزُ للوُثوبِ منتظِرَةً إشارةَ القائدِ بالهجومِ العامّ، إذ جاء البريدُ من المدينةِ المنوَّرَةِ يحملُهُ «مَحْمِيَّةُ بنُ زُنَيْمٍ»، فتراكضَ الفُرسانُ وأحاطوا به يسألونَهُ الخَبَرَ، فقال مَحْمِيَّةُ:

ـــ إني أحمِلُ أخباراً سارَّةً..

صاحَ الفرسانُ وقد استبشرُوا أخيراً:

ـــ هل هناكَ مَدَدٌ أرسلَهُ إلينا الخليفةُ؟

أجابَ محميةُ يُطمئِنُهُمْ:

ـــ بل هناك أمدادٌ كثيرةٌ، وهي في طريقها إليكم.

صاح الفرسانُ فَرِحينَ مُستبشرِيْنَ:

ـــ اللهُ أكبرُ، اللهُ أكبرُ!

وقادوه حتى وصلوا به إلى مَقَرِّ القائدِ.

أمرَ خالدُ بنُ الوليدِ الفرسانَ أن يعودوا إلى مراكزِهِمْ، ثم التفت إلى مَحْمِيَّةَ وسألَهُ:

ـــ ماذا تحملُ إلينا من أخبارٍ؟

إقتربَ محميةُ من خالدٍ، وهمس في إذنِهِ يقولُ:

ـــ لقد تُوُفِّيَ أبو بكرٍ رحمهُ الله، وبايعَ المسلمونَ عمر بنَ الخطابِ، ومعي كتابٌ من الخليفةِ الجديدِ يأمرُ فيه بتوحيدِ الجيوشِ تحتَ إمرةِ أبي عُبيدةَ بنِ الجراحِ.

وبدأ الحُزْنُ واضحاً على أساريرِ خالدٍ لهذهِ الأخبارِ، ولكنَّهُ سُرْعانَ ما تمالَكَ نفسَهُ، وقال:

ـــ إنا للهِ وإنا إليه راجعونَ! وبماذا أَخْبَرْتَ الجنودَ؟

ـــ لقد كتمتُ عنهم الأخبارَ الحقيقيةَ، وقلتُ لهم إن مَدَداً كثيراً هو في الطريقِ إليكم.

قال القائدُ موافقاً:

ـــ لقد أحسنْتَ صُنعاً، فقفْ إلى جانبي ولا تفارِقْني، وإياك أن تقولَ شيئاً، فإني أخافُ على

الجُنْدِ أن تُؤثِّر هذه الأخبارُ في روحِهِم المعنويةِ في هذه الساعاتِ الحَرِجَةِ. هاتِ كتابَ عُمَرَ.

وأخذ الكتاب فوضَعَهُ في كِنانَتِهِ دونَ أن يَفُضَّهُ وينظرَ فيه. ثم التفت إلى فصيلةِ المراسلينَ التي كانتْ قريبةً منه، وقال بصوتٍ مسموعٍ:

إني مكبِّرٌ ثلاثاً فكبِّروا.

وكانت تلك إشارةَ الزحفِ العامِّ، فما كادتْ أصواتُ الرجالِ تعلُو بالتكبيرةِ الثالثةِ حتى دَبَّتِ الحركةُ في كلِ قِطَعاتِ الجيشِ باتجاهِ العدوِّ، ما عدا الفرقةَ الإحتياطيةَ التي ظلتْ على أهْبةِ الإستعدادِ لكلِّ طارىءٍ.

* * *

• كان أولُ سلاحٍ اشْتركَ في القتالِ هو سلاح

الرُّماةِ الذين راحوا يَرْشُقونَ مشاةَ العدوِّ وفرسانَهُ بنبالِهِمُ النافذةِ رشقاتٍ كثيفةً مُحْكَمَةً، فتساقطَ من جنودِ العدوِّ مئاتٌ. وبعدَ دقائقَ قليلةٍ وصلتْ صفوفُ المسلمينَ إلى صفوفِ الرومِ.. الفرسانُ في الصفِّ الأماميِّ، ومِن خَلْفِهِمُ المشاةُ حامِلُو الرماحِ، فصدرَ الأمرُ إلى الرُّماةِ بالتَّوَقُّفِ لِئلا يُصيبوا بسهامهم جنودَ المسلمينَ.

وكَبَّرَ المسلمونَ، ثم حَمَلُوا على عَدوهِمْ حملةً صادقةً وهم صامتونَ. وخَفَتَتِ الأصواتُ إلا صهيلَ الخَيْلِ وصليل السيوفِ وقعقعةَ الرماحِ

ومضى على ذلك ساعتانِ أو أكثرُ دونَ أن تَظْهَرَ بوادرُ نصرٍ لأحدِ الجانبَيْنِ على الآخرِ.

جولة ثانية وخطة جديدة

وشعر خالدُ بنُ الوليدِ، كما شعرَ قائدُ الرومِ «تيودوريكُ» أنَّ القتالَ قد أنْهَكَ الرجالَ في كلا الطرفَيْنِ دونَ الوصولِ إلى نتيجةٍ حاسمةٍ، فأصدرَ كِلاهُما أمَرهُ إلى جنودِهِ بالتراجُعِ لأخذِ قِسْطٍ من الراحةِ استعداداً للجَوْلَةِ القادمةِ.

وبينما كانت فِرَقُ الإسعافِ تقومُ بواجِبِها في نقل الجرحى إلى الساقةِ لمعالجةِ جراحِهِمْ على أيدي النساء، وتُخْلِي ساحةَ المَعرَكَةِ من جُثَثِ الشُّهداء لدفنها والصلاةِ عليها، بينما كان يجري ذلك كلُّه أقبل

أبو عبَيْدةَ بنُ الجرّاحِ على خالدِ بنِ الوليدِ وقالَ والسرورُ بادٍ على مُحَيّاهُ:

ـــ لقد كانت جولةً مُتكافِئةً بيننا وبينَ الرومِ يا أبا سُليمانَ.

قال خالدٌ مبتسماً:

ـــ بل لقد كانتْ نصراً لنا لا شكَّ فيه يا أبا عُبَيدةَ.

سأل أبو عُبَيدةَ متعجباً:

ـــ وكيف ذلك؟!

أجابَ خالدٌ مُفَسِراً:

ـــ صحيحٌ أنها لم تَنْتَهِ بهزيمةِ الرومِ، ولكنَّها دلَّلَتْ على قُدْرَةِ العربِ، على الرُّغمِ من قِلَّةِ عَدَدِهِمْ،

على الصمودِ في وَجْهِ عدوٍ يفوقهُمْ بالعَدَدِ والسِّلاحِ خمسةَ أضعافٍ. وهذا وَحْدَهُ نصرٌ كبيرٌ يرفعُ معنوياتِ العربِ، ويُثَبِّطُ هِمَمَ الرومِ. ثم لا تَنْسَ أننا لم نُلْقِ بكلِ قواتنا في المعرَكةِ، فلا يزالُ عِندنا فِرْقةُ احتياطٍ وحمايةٍ تضُمُّ أحَدَ عَشَرَ ألفَ مُقاتلٍ لم يشتركوا بعدُ في القتالِ.

وصمتَ قليلاً يُفكِّرُ، ثم استأنفَ يقولُ:

ــ والآن، ادعُ أمراءَ القِطَعاتِ والكراديسِ إلى الإجتماعِ في خيمتي لِمُناقشةِ خسائِرِنا، ودراسةِ نتائجِ هذه الجولةِ.

* * *

بعدَ رُبعِ ساعةٍ كانَ الإجتماعُ قد اكْتَمَلَ نصابُهُ في خيمةِ القائدِ العامِّ.

وبدأ خالدٌ الحديثَ فقال:

ـ كمْ بلغتْ خسائِرُنا حتى الآن؟

ونهضَ المسؤول عن إحصاء الخسائِرِ فأجابَ:

ـ ٤٣١ شهيداً، و٥٠٧ جرحىٰ جِراحُهُم مختلفةٌ.

قالَ خالدٌ:

ـ سبقتْ لهم الشهادةُ فهنيئاً لَهُم! وإنا لله وإنا إليه راجعونَ!. والآن لِيَذْكُرْ كلٌ منكم ما لاحَظَهُ من نِقاطِ الضَّعفِ في صفوفِنا لنتلافاهُ في الجَوْلَةِ القادمةِ، وما لاحَظَهُ من نِقاطِ الضَّعفِ في صفوفِ الروم لِنَستفيدَ منه.

وعندئذ رفعَ شُرَحْبيل بنُ حسنةَ يَدَهُ طالباً الإِذْنَ بالكلامِ، فلما أذنَ له قالَ:

ـ لاحظتُ أيُّها الأميرُ أن سِلاحَ الفُرسانِ

عندَهُم بَطيءُ الحركةِ بسببِ كَثْرَةِ الدروعِ الحديديةِ التي يَتَدَرَّعُ بها فُرسانُهُمْ، وهذا يتيحُ لنا الفرصةَ للقيامِ بحركةٍ إلتفافيةٍ بسلاحِ فرسانِنا الخفيفِ الحركةِ يضْرِبَهمْ من كلا الجناحَيْنِ.

وسكتَ شُرَحبيلٌ، فاستأذنَ عَمْرُو بنُ العاصِ بالكلامِ، ثم قالَ:

أهمُّ نُقْطَةِ ضعفٍ فيهم هي المُشاةُ، فإن أربعين ألفاً منهم قد ربطُوا أنفسَهُم بالسلاسلِ الحديديةِ، وأربعينَ أيضاً آخرينَ قد ربطوا أنفسَهُم بالعمائمِ، كلُّ عَشَرَةٍ منهم في سلسلةٍ أو عمامةٍ. فإذا قُتِلَ الواحدُ من العَشَرَةِ المربوطينَ أو جُرِحَ ارتَبَكَتْ حركة التسعةِ الآخرينَ المقرونينَ مَعَهُ في السلسلةِ نفسِها. فإذا نحن ركَّزْنا ضَرَباتِنا على المشاةِ المقرونينَ، فإننا نستطيعُ أن نَشُلَّ حركتَهُم تماماً بِقَتْلِ عُشْرِهِمْ أو

خُمْسِهِم على أبعدِ تقديرٍ. وبذلك نُخرِجُ من المعركةِ أكثر من ثُلُثِ الجيشِ الروميِّ.

وتكلَّمَ بعدَ ذلكَ كلٌّ من عِكرمةَ بنِ أبي جهلٍ، ويزيد بنِ أبي سُفيانَ، وأبي عبيدةَ بنِ الجراحِ، والقعقاعِ بنِ عمروٍ، وعياضِ بنِ غَنْمٍ، فذكروا ما لاحظوه من نِقاطِ الضَّعفِ والقوةِ في الجيشِ الروميِّ.

فلما انتَهَوا من كلامِهِمْ شرعَ خالدٌ يتكلمُ فقالَ:

ــ كلُ الذي ذكرتُمُوهُ من نِقاطِ الضعفِ في الرومِ صحيحٌ، وقد رأيتُهُ أنا بنفسي أيضاً، ولكنَّ اقتراحاتِكُمْ لاستغلالِ نِقاطِ الضعفِ هذه غيرُ سليمةٍ. فأما القيامُ بحركةِ تَطْويقٍ لضربِ جناحَي العدوِّ، وهو ما اقترحَهُ شُرَحْبيلٌ، فغيرُ مُفيدٍ لنا، بل هو شديدُ الإضرار بنا، وذلك لِقِلَّةِ عَدَدِنَا، وصِغَرِ

حَجْمِ جيشِنا بالنسبةِ إلى جيشِ العدوِّ الهائلِ الحَجْمِ، فإذا نحن أرسلْنا كراديسَنا لتطويقِ جنَاحي العدوِّ الممتَدَيْنِ امتداداً واسعاً، فإن ذلك سيؤدِّي إلى تباعدِ كراديسِنا بعضِها عن بعضٍ، وإلى إحداثِ فُرُجاتٍ واسعةٍ بينها، فتسنحُ الفُرصةُ لعدوِّنا لِيقومَ بعملياتِ اختراقٍ لصفوفِنا، وتَغَلْغُلٍ بين قواتِنا وفي ذلك ما فيه من إرباكٍ لنا، وإشاعةٍ للفوضى بين صفوفِنا. هذا إلى أنَّ عمليةَ التطويقِ مُتعذِّرة بسببِ احتماء مُؤخَّرَةِ العدوِّ بالخَنْدَقِ الذي وراءهُمْ. وأما ما اقترَحَهُ عمرُو بنُ العاصِ من التركيزِ على قواتِ المشاةِ المقترنينَ بالسلاسلِ، فغيرُ مُمكنٍ أيضاً، وذلك بسبب الحِمايةِ القويةِ التي يتلقاها سلاحُ المشاةِ من سِلاحِ الفُرْسانِ. فلعلكم لاحظْتُمْ كما لاحظتُ أنا أنهم يُرَكِّزون فُرْسانَهُمْ في الجناحَيْنِ وفي مُجَنَّبَتي القَلْب لحراسةِ المشاةِ المُتمرْكزينَ في القَلْبِ، والذين

يؤلِّفونَ الكتلةَ العظمى في جَيْشِهِمْ، وأنَّ فصائلَ من الفرسانِ تُسرِعُ لنجدةِ المشاةِ وحمايَتِهِمْ كلما بدا بعضُ الخلَلِ في صُفُوفِهِمْ. فإذا استمرَّ العدوُّ في تطبيقِ طريقتِهِ هذهِ في الجَوْلَةِ القادمةِ، فإن الخُطةَ المثلى للقضاء عليه وتحطيمِ قواتِهِ هي في عَزْلِ سِلاحِ الفُرْسانِ عنِ المشاةِ لِحرْمان هؤلاء من الحمايةِ، وحينئذٍ يُصبحُ من أيسرِ الأمورِ القضاءُ على سلاحِ المشاةِ كلِّهِ.

وتنفيذاً لهذه الخطةِ علينا أن ندفع بسلاحِ رُماتِنا في مواجهةِ فُرسانِهِمْ في المرحلةِ الأولى من القتالِ، وأوْصُوا الرماةَ بتركيزِ رَمْيِهِمْ على الخيولِ لا على راكبيها، فإنَّ إصابةَ الحصانِ أسهلُ من إصابةِ راكبِهِ الضئيلِ الحجمِ، والمُدَرَّعِ بالحديدِ، فإذا نَفَذَتْ سِهامُ الرُّماةِ فعلى مُجَنِّبَتى القَلْب عندنا مهمةُ القيامِ بعمليةِ

اختراق في نقطتين تقعانِ على جانِبَيْ قلبِ العدو، لِعزلِ الفرسانِ عن مُشاةِ قلبِ العدوّ، وستكونُ هذه مهمةَ القعقاعِ بنِ عمروٍ وعِكرمةَ بنَ أبي جَهْلٍ بكراديسِ الإحتياطِ والحمايةِ.

وبعد ذلك يقومُ جناحُنا الأيمنُ بقيادةِ عمروِ بنِ العاصِ، وجناحُنا الأيسر بقيادةِ يزيدَ بنِ أبي سُفيانَ بهجومٍ صاعقٍ ومُرَكَّزٍ على فرسانِ العدوِ فقط حتى يُخْرِجوهم من ساحةِ المعركةِ، وعندئذٍ أقومُ أنا بالهجومِ على قلبِ العدوِ الذي سيكونُ قد حُرِمَ من حمايةِ الفرسانِ وأصبحَ بالإمكانِ تمزيقُهُ شُرَّ مُمَزَّقٍ.

قائد رومي يعلن إسلامه

وما كاد خالد يَصِلُ في رسمِ خطتِهِ إلى هذه النقطةِ حتى دخلَ الخيمةَ أحدُ المراسلينَ وهو يقولُ:

ـــ أيُّها الأميرُ.

فسأله خالدٌ:

ـــ ما خَطْبُكَ؟

ـــ لقد اصطفَّ جنودُ الرومِ وتَهَيَّؤوا للقتالِ. وقد بَرَزَ «جَرَجَةُ» قائدُ طلائعِهِم وطلبَ مُقابلَتَكَ بين الصَّفَّينِ.

ـــ وماذا تُراهُ يُريدُ مني؟

ـ لا أدري أيُّها الأميرُ. لعله يُريدُ المبارزةَ، فقد برز بكامِلِ سِلاحِهِ.

ـ إني قادمٌ في الحالِ.

قال هذا والْتَفَتَ إلى الأمراء وقال:

اذْهَبوا الآنَ، وَلْيَقِفْ كلُّ أميرٍ منكم على رأسِ قطعتِهِ أو كُرْدوسِهِ مُستعداً لتنفيذِ أيِّ أمرٍ يَصدرْ إليه. وأما أنت يا أبا عُبَيْدَةَ فكن مكاني على إمارةِ الجَيْشِ رَيْثَما أعودُ من لِقاء هذا المدعوِّ «جَرَجَةَ» وإذا حدث لي مكروهٌ فأنتَ أميرُ الجيشِ بقيَّةَ هذا اليوم.

وقفَ منتظراً أن يأتوه بفرسِهِ «الأشقرِ» ثم قال كأنَّه تذكرَ شيئاً كان قد نَسِيَهُ:

ـ في كنانتي هذه ـ وأشارَ إلى كنانةٍ كانتْ في جانبٍ من الخيمةِ ـ كتابٌ جاء به البريد من

المدينةِ مُنذُ ثلاثِ ساعاتٍ. فإذا أصِبْتُ بمكروهٍ فَخُذْهُ، ولكنْ لا تَفْتَحْهُ وتقرأ ما فيه إلا بعدَ انتهاء المعركةِ القادمةِ.

ووصلَ في هذهِ اللحظةِ جُنْدي يقودُ «الأشقرَ» فَرَسَ خالدٍ من عِنانِهِ، فأخذَهُ هذا، وركبَهُ، ومضى على مَهَلٍ إلى لِقاء «جرجةَ» الذي كان ينتظرُهُ بين الجَيْشَيْنِ.

وعندما برز خالدٌ من الصفِّ الأماميِّ استلَّ سيفَهُ، وَهَمَزَ فرسَهُ، ومضى قُدُماً نحو «جرجةَ» الذي ما كاد يراه حتى صاحَ بهِ:

ــ أغْمِدْ سيفَكَ يا خالدُ؛ فإني لا أريدُ قتالاً.

قال خالدٌ يسألُهُ:

ــ وماذا تُريدُ إذنْ؟

قال «جرجةُ» أريد أن أسألَكَ عن أشياء، وأنا أؤَمِّنُكَ على نفسِكَ، فإن أمَّنْتَنِي على نفسِي فتعالَ إليّ لنتفاهَمَ بهدوءٍ.

قال خالدٌ وهو يُغمدُ سيفَهُ:

ــ قد أمَّنتُكَ على نفسِكَ أيضاً.

ثم سارَ حتى وصلَ إلى «جرجةَ» واختلفَتْ أعناقُ فَرَسَيْهِما، فقال «جرجةُ»:

ــ يا خالدُ أصدقْني ولا تكْذِبْني؛ فإن الحرَّ لا يَكْذِبُ ولا تُخادِعْني؛ فإن الحرَّ لا يُخادِعُ. هل صحيحٌ أن الله أنزلَ على نَبِيِّكم سيفاً من السماء، فأعطاكَ إيّاهُ، فلا تَسُلُّهُ على قومٍ إلا هَزَمْتَهُم؟

ــ ليس هذا صحيحاً.

ــ إذن فلأيِّ شيءٍ سُمِّيتَ «سَيْفَ اللهِ»؟

أجاب خالدٌ بوقارٍ:

ـــ إن اللهَ عزَّ وجلَّ بعثَ فينا نبيَّهُ محمداً صلى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فَدعانا إلى الإسلامِ.. إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَهُ، ونَبْذِ ما كُنّا عليهِ من عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ، وأنبأنا نَبأَ الحسابِ يومَ القيامةِ والثوابِ والعِقابِ، فصدَّقَهُ بعضُهُم، وكَذَّبَهُ آخرونَ، وكنتُ أنا فيمن كَذَبَهُ وقاتَلَهُ. ثم هدانِي اللهُ إلى الحقِّ، فَجِئْتُ رسولَ اللهِ مُعْلِناً إيمانِي بهِ، وإسلامي إلى اللهِ، فقال لي: أنتَ سيفٌ من سيوفِ اللهِ سَلَّهُ على المشركينَ. فهذا سببُ تَسْمِيَتي بسيفِ اللهِ.

قال «جرجةُ»:

ـــ صدقْتَ واللهِ.. ولكنْ أخبرني، إلى أيِّ شيءٍ تَدْعوني؟

ـــ إلى شهادةِ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، والإقرارِ بما جاء بهِ من عِنْدِ اللهِ.

ـــ فإذا لم نَقْبَلْ هذه الدعوةَ؟

ـــ إذن نفرِضُ عليكم الجِزيَةَ مُقابِلَ حمايَتِنا لكم من أعدائكُمْ.

واذا لم نقبل هذا أيضاً؟

ـــ في هذه الحالِ لا يَبْقى أمامَنا سوى إنذارِكُمْ ثم مُحارَبَتِكُمْ.

ـــ قلْ لي.. ما مَنْزِلَةَ الذي يَدْخُلُ في دِينِكم الآنَ.

ـــ منزلتُهُ كمنزلةِ سائرِ المسلمينَ؛ فنحن سَوَاسِيَةٌ كأسنانِ المِشْطِ لا فَضْلَ لأحدٍ على آخَر إلّا بالتَّقْوى.

ـــ ليس هذا ما أريدُ، إنما أريدُ أن أقولَ: هل

للمسلمِ حديثاً من الأجْرِ والثوابِ عند اللهِ مِثْلُ ما للمسلمِ قديماً؟

ــ نَعَمْ وأكثرُ.

ــ وكيفَ ذلك؟ أليس السابقُ في الإسلامِ أفضلَ من المُتَأخِّرِ؟

ــ لا. لأن السابقَ رأى الرسولَ بعَيْنِهِ، وشاهَدَ آياتِهِ ومُعْجزاتِهِ، فكانَ حقيقاً به أن يُؤمِنَ، أما الذي يُسْلِمُ من غيرِ أن يرى هذه المُعْجِزاتِ، فإن إيمانَهُ أعمقُ وأجْرَهُ عند اللهِ أكبرُ.

قال «جرجةُ» ورَنَّةُ الإعجابِ باديةٌ في صوتهِ:

ــ والله لقد صَدَقْتني ياخالدُ ولم تُخادِعْني.

قال خالدٌ:

ـــ واللهِ لقد صدقْتُكَ، وليسَ بي حاجَةٌ إلى الكَذِبِ عليك، والله على ما أجَبْتُكَ بِهِ شهيدٌ.

قال «جرجةُ»:

ـــ فإني أشهدُ أَنَّه لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمداً رسولُ اللهِ.

ثم قَلَبَ تُرْسَهُ الذي كانَ بِيَدِهِ وقالَ:

ـــ خُذْني يا خالدُ فعلِّمْني الإسْلامَ..

فانعطفَ به خالدٌ حتى انتهى به إلى خَيْمَته، فأمرَ بقِرْبَة ماءٍ، فأُحْضِرَتْ، فأمَرهُ أن يخلَعَ ثِيابَهُ ويَغْتَسِلَ. فلما اغتسلَ علَّمهُ الصلاةَ، فصلّى رَكْعَتَيْنِ.

نهاية عادلة للمشركين الغادرين

أثارتْ هذه الحادثةُ الغريبةُ حَنَقَ الرومِ وغَضَبَهُم، وعَدّوها خِيانةً من قائدِ طلائعِهِم لا تُغْتَفَرُ. وخَشِيَ القائدُ العامُّ «تيودوريكُ» أن يكونَ لها تأثيرٌ سَيِّىءٌ على معنوياتِ جنودِهِ، فأرادَ أن يُنْسِيَهُم إيّاها بِإِلْهائِهِمْ بالقِتالِ، فأمرَ بالزَّحْفِ العامِّ مُنْتَهِزاً فُرْصَةَ انشغالِ خالدٍ بإسلامِ «جرجةَ» وتعليمِهِ الصلاةَ.

وفوجِىءَ العربُ بالهجومِ الصاعِقِ الذي شَنَّهُ عليهم الرومُ، فاضْطَرَبَتْ صُفوفُهُم، وتَضَعْضَعَتْ قواتُهم، وبدأَ جناحُهُم الأيمنُ بالتراجعِ، فما كانَ من

عَمْرِو بنِ العاصِ قائد المَيْمَنَةِ إلا أنِ اخْتطفَ الرايَةَ من يدِ حامِلِها، وثبتَ بها وهو يَدْعُو الناسَ إلى الثباتِ والالتفافِ حَوْلَهُ.

أما عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ الذي كان مسؤولاً عن فِرَقةِ الحمايةِ، فإنّه ما إنْ رأى قواتِ الرومِ تتغلغلُ في صفوفِ المُسْلمينَ حتى صاحَ بالرومِ.

ــ وَيْلكَمُ أيها الجُبَناء! لقد قاتَلْتُ رسولَ اللهِ حينَ كنتُ مُشْرِكاً في كلِ مَوْطِنٍ ولم أَفِرَّ منه، فهل أَفِرُّ منكم اليومَ أَيُّها الأَنذالُ!.

ثم نادى بأعلى صوتِهِ:

ــ مَنْ يُبَايِعُ على الموتِ؟

فبايَعَهُ أربعُمِائةِ رجلٍ مِنهم أبنُهُ عَمْروٌ، والحارثُ بنُ هِشامٍ، وضِرارُ بنُ الأَزْوَرِ، فسارَ بهم حتى وقفَ

أمامَ خيمةِ خالدٍ، وظلَّ يقاتلُ هو ومن معه حتى قُتِلَ مَنْ قُتِلَ وجُرِحَ من لم يُقْتَلْ جِراحاً أصبحَ معها غيرَ قادرٍ على القِتالِ.

وكان ممن جُرِحَ ضِرَارُ بنُ الأزورِ. فلما حملتْهُ فِرْقَةُ الإسعافِ الى مُؤَخَّرةِ الجَيْشِ (السَّاقَةِ)، من أجلِ أن تَتَولّى النساءُ مداواةَ جِراحِهِ، رأتْهُ أختُهُ خَوْلَةُ بِنْتُ الأَزْوَرِ، وكانتْ بينَ النساءِ، فاسْتَلَّتْ سَيْفَهُ، وركبتْ حِصانَهُ، وتلثَّمَتْ، ثم انطلقَتْ الى الصفوفِ الأماميَّةِ لتُقاتِلَ وهي تَصِيحُ:

ــ يا لثأراتِكَ يا ضِرارُ!.

ولَحِقَتْ بها جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ أبي سُفيانَ على فَرَسٍ من خَيْلِ الجَرْحى، ثم تتابَعَتِ النِّساءُ حتى بَلَغْنَ ما يزيدُ على مِئَةِ امرأةٍ.

فأما خَوْلَةُ فمضتْ الى حيثُ كان يُقاتِلُ أخوها

ضِرارٌ، وراحتْ تَضْرِبُ الرومَ بسيفِها وهي تصيحُ:

ـ مَنْ غَرِيمي في ضِرارٍ حتى أَقتُلَهُ؟

وأمّا النساءُ الأُخْرَياتُ فقد مَضَتْ كلٌّ منهن الى حيثُ كانَ يقفُ زوجُها فقاتَلَتْ الى جانبِهِ.

ومِنهن جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ أبي سُفيانَ التي وقفَتْ الى جانبِ زوجِها، وظَلَّتْ تُقاتِلُ حتى أُصِيبَتْ بعدَ قتالٍ شديدٍ.

* * *

كان للعمليةِ الفِدائيةِ التي قام بها عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ، ولاشتراكِ النِّساءِ في القتالِ الى جانبِ أزواجِهِنَّ، أثرُهُما البالغُ في نفوسِ العربِ، فَسُرعانَ ما ثابَتْ إليهم عُقولُهُمْ، وزالَ عنهم أَثَرُ المُفاجأَةِ، وعادُوا الى القِتالِ بحماسَتِهِمُ المعهودَةِ.

وزاد في حماسَتِهِم أَنَّهم رَأَوْا قائدَهُم خالدَ بنَ الوليدِ يخرجُ الآنَ من خيمتِهِ ويركبُ فَرَسَهُ، ويستَلُّ سيفَهُ، ويُقاتِلُ بِضَراوَةٍ، ومعه «جَرَجَةُ» الذي أَسلَمَ حديثاً.

وهكذا، لم يمضِ نصفُ ساعةٍ حتى ردَّ العربُ الرومَ على أعقابِهِمْ، وأعادُوا النظامَ إلى صفوفِهِم بعدَ أنِ اضْطَرَبَتْ إضطراباً شديداً.

ولكنَّ هذه المفاجأةَ غيرَ المتوقَّعةِ من الرومِ قد فَوَّتَتْ على خالدٍ أن يُنَفِّذَ خُطَّتَهُ على الصورةِ التي رسَمَها لها قبلَ القتالِ. فسلاحُ الرُّماةِ باتَ عاجزاً عن فِعْلِ شيءٍ بعدَ أن التحمت صفوفُ العربِ بصفوفِ الرومِ. وكذلك فإنَّ كثيراً من الرجالِ الذين كانَ يعتمدُ خالدٌ عليهم في تَنْفِيذِ خُطتِهِ قد قُتِلُوا مثلَ عَكْرِمَةَ بنِ أبي جَهْلٍ وغَيْرِهِ.

وفكَّرَ خالدٌ فرأى أنه لا بُدَّ من إدخالِ بعضَ التعديلاتِ على خطتِهِ بشكلٍ يَتَّفِقُ مع تطوراتِ الأحداثِ التي جَدَّتْ، فاستَدْعى أَبا عُبَيدةَ بنَ الجراحِ والقعقاعَ بن عمروٍ، وقال لهما:

ــ لَدَيْنا في السَّاقةِ أَحَدَ عَشَرَ ألفَ مُقاتلٍ من القواتِ الاحتياطيةِ التي لم تَشْتَرِكْ بعدُ في القتالِ، إذْهبا فَهَيِّئاها، ثم اقْسِماها قِسْمَيْنِ، ثم اجعلا كلَّ قِسْمٍ منها خلفَ واحدةٍ من مُجَنِّبَتَي القَلْبِ، وأَخبراني بذلك إذا انْتَهَيْتُما.

ومضى القائدانِ، ثم عادا بعدَ ساعةٍ لِيُخبرا خالداً بأَنَّ كلَّ شيءٍ قد تَمَّ كما أمرَ، فقال لهما:

كُنْ أنتَ يا أبا عُبَيدةَ أميراً على القِسْمِ الأولِ، وكُنْ أنتَ يا عمرُو أميراً على القِسْمِ الثاني، ثم

انتظِرا إشارَتي، فإِذا سَمِعْتُماني أُكَبِّرُ ثلاثَ مراتٍ، فَلْيَهْجُمْ كلٌّ منكما بقوةٍ وسرعةٍ على خَيَّالةِ العدوِّ التي تَحْرُسُ قَلْبَهُ من جانِبَيْهِ. أنتَ تُهاجِمُ خَيّالةَ القلبِ اليُمنى، وأنتَ تهاجمُ خيالةَ القلبَ اليُسرى. وحاولا بكلِّ قوةٍ أن تدفعا بالخَيّالة بعيداً عن القلبِ، أما أنا فسأقومُ بمهاجمةِ القَلْبِ بعدَ أن يَنْفَصِلَ عنهُ جناحاه من الخَيَّالةِ.

وتَمَّ كلُّ شيءٍ كما أعدَّ خالدٌ وقَدَّرَ، فبعدَ ربع ساعة من هذا الحِوارِ، صاحَ خالدٌ:

ــ اللهُ أكبرُ!

فصاحَ المسلمونَ كلُّهم، وبصوتٍ واحدٍ:

ــ اللهُ أكبرُ!

ثم انفرجَتْ صفوفُ العربِ في نُقْطَتَيْنِ على جانِبَي القَلْبِ تاركةً مكاناً واسعاً لكلِّ قِسْمٍ منَ

قِسْمَيِ القُواتِ الاحتياطيةِ التي تَقِفُ في الخلفِ مُتَحَفِّزَةً للوُثوبِ.

وصاحَ خالدٌ ثانيةً:

ــ اللهُ أكبرُ!

فردَّدَ المسلمونَ تكبيرَهُ، وتَنَكَّبَ الفُرسانُ الاحتياطيونَ رِماحَهُمْ.

وصاحَ خالدٌ ثالثةً:

ــ اللهُ أكبرُ!

وفي لحظةٍ واحدةٍ انطلقَ من جانبِ القلبِ الأَيمنِ للعربِ سِتَّةُ آلافِ فارسٍ على شَكْلِ سَهْمٍ، وانطلقَ خَمْسَةُ آلافِ فارسٍ من جانبِ القلبِ الأيسرِ على الشَّكْلِ نفسِهِ، وانقضَّ هذان السهمانِ الهائلانِ على خيَّالةِ العدوِّ المقابلةِ لهم في سُرْعَةِ الصاعقةِ، وقوةِ العاصفةِ.

وصُعِقَ فُرسانُ العدوِّ من هَوْلِ المفاجأةِ، فاضطربَتْ صُفوفُهُمْ، وَلَوَوْا أَعِنَّةَ خَيْلِهم ولاذُوا بالفِرارِ. وتَبِعَهُم فُرسانُ العربِ حتى أَلْجَؤُهُمْ الى الخَنْدَقِ، فلما رأى ذلك خالدٌ أرسلَ الى أبي عُبيدة والقعقاعِ يقولُ لهما:

ـ لا تُضايِقُوا فرسانَ الرومِ، فإنّهم إذا رَأَوْا أنفسَهُم محصورِينْ بينكم و بين الخَنْدَقِ، ولا مَهْرَبَ لهم إلا الى القتالِ، قاتَلُوكُمْ فَشَغَلُوكم عمّا هو أَهَمُّ من قِتالِهِمْ، ولكن افْسَحُوا لهم فُرْجَةً بينكم تُطْمِعُهُم في الهَرَبِ، فإذا هَرَبُوا الى البَراري وتَشَتَّتُوا فعُودُوا الى الجيشِ لِتَشْتَرِكوا في الهُجومِ العامِّ الذي سَنَشُنُّهُ على قلبِ الأعداءِ.

بعدَ نصفِ ساعةٍ من ذلك عادَتْ فِرْقَتا الاحتياطِ بعد أنْ نَفَّذتَا المُهِمَّةَ على أكملِ وَجْهٍ.

وعندئذٍ أصدرَ خالدٌ أمرَهُ بالهجومِ العامِّ، واستَلَّ سَيْفَهُ، وتَقَدَّمَ الصفوفَ ليقودَ الهجومَ بنفسِهِ.

صاحَ خالدٌ وسيفُهُ يلتَمِعُ في يَدِهِ:

ــ اللهُ أكبرُ!

واندفع كالجَبَلِ نحوَ قلبِ العَدُوِّ والمسلمونَ حولَهُ ومن خَلْفِهِ يُكَبِّرونَ.

لما رأى «تيودوريكُ» القائدُ العامُّ للرومِ هربَ فُرسانِهِ، وأنَّ مُشاتَهُ أصبحتْ مكشوفةً وبغيرِ حمايةٍ، أصدَرَ أمرَهُ إلى المُشاةِ بالتَّقَهْقُرِ إلى ما وراء الخَنادِقِ لِلاحْتِماء بها. ولكنَّ خالداً لم يُمَكِّنْهُم من ذلك، وعاجَلَهُم قبلَ أن يَصِلوا إلى الخَنْدَقِ، وانقَضَّ عليهم بِقُواتِهِ من الفُرسانِ والمشاةِ الخفيفةِ فَسَحَقَهُم سَحْقاً.

دبَّ الذُّعْرُ في صفوفِ الأعداء، وأطلقُوا سِيقانَهُم للريحِ يُريدُ كلٌّ منهم النجاةَ بنفسِهِ فزادَ

ذلك من اضطرابِهِمْ وارتباكِهِم وكَثْرةِ القتلى فيهم، لأنَّ المُقْتَرِنينَ بالسلاسلِ كانوا إذا سقطَ الواحدُ منهم في الخَنْدَقِ جَرَّ مَعَه في سقوطِهِ التِّسْعَةَ الآخرينَ المَربوطينَ معه في السلسلةِ.

أما غيرُ المُقْتَرنينَ بالسلاسلِ فقد استطاعوا بسببِ حُرِّيَّتِهِم في الحركةِ أن يَجْتازوا الخَنْدَق إلى الساحةِ الواقعةِ خَلْفَهُ. ولكنَّ فُرسانَ العربِ لم يُمْهِلُوهُم، فاقْتَحَموا بِخَيْلِهِم الخَنْدَقَ، وراحوا يُطارِدُونَهم حتى الواقوصةِ، وهي انهدامٌ شديدُ الانحدارِ كان خلفَهم، فراحوا يتساقطون في الواقوصةِ كما تتساقطُ الحِجارةُ من أعلى الجبلِ.

دامتْ هذهِ الأحداثُ الرهيبةُ من الظهرِ حتى ساعةٍ مُتَأخِّرَةٍ من الليل. وصلّى المسلمونَ صَلاَتي الظُّهرِ والعَصْرِ إيماء وهم يُقاتِلونَ.

وعند الفَجْرِ أمَر خالدٌ بالتقاء المَجْلِسِ الحربيِّ لِلنَّظر في نتائجِ المَعْركةِ التي لم يَشْهَدِ العربُ ولا الرومُ مثيلاً لها في ضَراوتِها وهَوْلِها .

قالَ خالدٌ يسألُ المكلَّفَ باحصاء الخسائر:

ــ كَمْ بلغتْ خسائرُنا ؟

أجاب الرجلُ:

ــ ثلاثةَ آلاف بين قَتيلٍ وجريحٍ .

ــ وكَمْ خسائرُ العدوِّ؟

ــ إنها كبيرةٌ جداً أيُّها الأميرُ، ومن الصَّعْبِ احصاؤها، ولكنَّ ثمانين ألفاً منهم سَقطوا في الخَنْدَقِ، ومِثْلَهم أيضاً سقطوا في الواقوصةِ خلفَ الخَنْدَقِ، كما قُتِلَ قائدُهم العامُّ «تيودوريكُ» أخو «هِرَقْلَ» .

قال خالدٌ:

ـــ الحمدُ للهِ الذي نصرَ عِبادَهُ المُؤمنينَ.

قال هذا، ومدَّ يَدَهُ إلى كِنانَتِهِ، فاخرَجَ الرِّسالةَ التي جاء بها البريدُ في السابقِ، وفضَّ خَتْمَها، ثم دَفَعَها إلى أبي عُبَيْدَةَ وهو يقولُ:

ـــ يا أبا عبيدةَ، أنتَ منذُ اليومِ أميرُ الجيشِ كُلِّهِ. فقد تُوُفِّيَ أبو بكرٍ رَحِمَهُ اللهُ، وبايَع المسلمونَ عُمَرَ بن الخَطّابِ، وهذه الرسالةُ فيها أوامرُ الخليفةِ الجديدِ بتوحيدِ الجيوشِ الشاميةِ تحتَ إمارَتِكَ، وإعادةِ الجيشِ العراقيِّ الذي جئتُ بهِ مَدَداً لَكم إلى العراقِ تحتَ قِيادةِ هاشمِ بنِ عُتْبَةَ بنِ أبي وَقّاصٍ. وقد كَتَمْتُ الأمرَ عنكم إلى حينِ انتهاء المعركةِ خوفاً على المسلمين من الاضطرابِ.

قال أبو عبيدة:

ـــ وأنتَ... ماذا بَقِيَ لك؟

أجابَ خالدٌ في جَلالٍ وعظمةٍ:

ـ لا شيء سوى الرضى بأنني أدَّيْتُ واجِبي.

هذه هي معركةُ اليَرْموكِ التي هَزَّتِ الامبراطوريةَ البيزنطيةَ هزَّةً عنيفةً، ولم تستطِعْ بعدَها أن تَرْبَحَ معركةً ضدَّ العربِ.

وهذه هي عَبْقريَّةُ خالدٍ العسكريةُ التي قال فيها الماريشالُ الالمانيُّ «فُولد دِرگُولتْز»:

«إنَّ خُطـَّةَ خالدِ بنِ الوليدِ في معركةِ اليَرْموكِ كانت خُطـَّةً ما عرفَ التاريخُ الحربيُّ أروعَ منها ولا أوْفى، ولم يَسْتَطِعْ أحدٌ لا مِن قَبْلِهِ ولا مِن بَعْدِهِ مُجاراتَهُ في مِثْلِها قَطُّ».

نظرة تحليلية

تُعَدُّ معركةُ اليرموكِ واحدةً من أعظمِ المعاركِ وأروعِها في تاريخِ العالمِ العسكريِّ. وسَتبقى موضوعاً للدراسةِ والتحليلِ في الأكاديميّاتِ العسكريَّةِ في جميعِ بلادِ العالمِ إلى آخرِ الدهرِ. وقد تَجلَّتْ فيها عبقريةُ خالدٍ كأروعِ ما تكونُ العبقريَّةُ العسكريَّةُ، مما جعلَهُ يحتَلُّ مكاناً مرموقاً بين قادةِ العالمِ المشهورين. كالإسكندرِ المَقْدُونيِّ، وجَنْكِيزْخانَ، وتَيْمُورلَنْكَ، وهَاني بَعْلَ، ونابوليونَ بونابرت.

وإذْ كان من الصعبِ علينا أن نُوَفِّيَ هذه المعركةَ حقَّها من الدراسةِ في فيما بقيَ لنا من

الصفحاتِ القليلةِ، فإننا سنكتفي بالإشارةِ إلى أهمِّ جوانِبها، وأبرزِ خطوطِها:

١ * المباغتة:

كان خالدُ بنُ الوليدِ يُؤمنُ بمبدأ مباغتَةِ العدوِّ، ومفاجأتُهُ بغيرِ ما كانَ يَتوَقَّعُ، هي من أهمِّ عواملِ النصرِ، إن لم تكنْ أهمَّها على الإطلاقِ. وظلَّ يَتَمَسَّكُ بهذا المبدأ، ويحاولُ تطبيقَهُ على المُسْتَوَيْنِ السَّوْقيِّ (الاستراتيجي) والتَّعْبَوِيِّ (التكتيكي) في كلِّ المعاركِ التي خاضَها. ولعل القارىء يذكرُ أن المشركينَ في معركةِ أُحدٍ لم يكونوا لِيَنْتَصِروا على المسلمينَ لولا ما قامَ به خالدٌ ــ وكانَ يومئذٍ مع المشركينَ ــ من حركةِ الْتفافٍ على رأسِ فرقةِ الفُرْسانِ، ومباغتَةِ المسلمينَ من خلفِهِمْ. صحيحٌ أن تلك المعركةَ لم تَنْتَهِ بانتصارٍ حاسمٍ للمشركينَ على

المسلمينَ، ولكنَّ ذلك لا يعودُ إلى قِلَّةِ جَدْوى ما فعلَهُ خالدٌ، بل يعودُ إلى غَباء المشركينَ الذي ظهرَ في اكْتِفائهِمْ بنصفِ نصرٍ، وَعَدمِ تفكيرِهِم في استثمارِ نَصْرِهِم حتى النهايةِ. وذلك أمرٌ لم يكنْ خالدٌ مسؤولاً عنه، لأنَّ القيادةَ العامَّةَ لم تكنْ يومئذٍ في يَدِهِ.

ويستطيعُ القارىء، بالرجوعِ إلى كتبِ التاريخِ، أو بمطالعةِ الكتبِ التي درسَتْ شخصيةَ خالدِ بنِ الوليدِ، أن يرى بوضوحٍ كيفَ كان هذا القائدُ لا يَنْفَكُّ يُطَبِّقُ مبدأ المباغتةِ في حروبِ الرِّدَّةِ، ثم في حروبِهِ ضدَّ الفُرسِ في جنوبيِّ العِراقِ.

وقد رأينا هُنا، بعد أن وَرَدَ إليه أمرُ الخليفةِ بالتَّوَجُّهِ نحوَ الشامِ، كيف اختارَ إلى هدفِهِ أصعبَ الطُّرُقِ، وأكثرَها خطورةً، لا لشيء إلا أنْ يُحَقِّقَ

المباغتةَ على العدوِّ من الناحيةِ السَّوْقيّةِ، لِيُرْبِكَهُ ويُعَرْقِلَ خطوطَ مواصلاتِهِ مع قواعدِهِ.

وإذْ كانَ خالدٌ يُدركُ أن السرعةَ أمرٌ ضروريٌّ لتحقيقِ أية مباغتةٍ كانتْ، فقد اختارَ الطَّريقَ الذي يُوَفِّرُ له الأمورَ الآتيةَ:

١ - أنْ يكونَ أقصرَ الطرقِ، لكي يُعاجِلَ العدوَّ قبلَ أن، يَتأَهَّبَ هذا لَهُ.

٢ - أنْ يكونَ بعيداً عن المُدُنِ التي بها حامياتٌ قويَّةٌ قد تُؤخِّرُهُ إذا هو اصْطَدَمَ بها، أو تُسبِّبُ له إزعاجاً في مؤخرتِهِ إذا هو تجاوَزَها.

٣ - أنْ يكونَ خالياً من نِقاطِ مراقبةٍ للعدوِّ قد تُنْزِرُهُ، فتُفَوِّتُ على خالدٍ غَرَضَهُ، وتحولُ دونَ تحقيقِ عُنْصُرِ المباغتةِ التي يُريدُها.

وهكذا مضى خالدٌ يطعنُ بجيشِهِ في صحراء

مُهلكةٍ، في مغامرةٍ لم يَعْرِفِ التاريخُ العسكريُّ مثيلاً لها من قبلُ، ولا من بعدُ، حتى طلعَ على العدوِّ من خلفِهِ، بعد ثمانيةَ عَشَرَ يوماً من بدء مَسيرِهِ. فحقَّقَ بذلك مباغتةً كاملةً على العدوِّ من الناحيتَيْنِ الزَّمانيَّةِ والمَكانيَّةِ.

لقد حقَّقَ خالدُ بنُ الوليدِ بعبوره هذا مُعجزةً سَوْقِيَّةً لا تزالُ تُحَيِّرُ القادةَ العسكريِّينَ، وتثيرُ إعجابَهُم إلى اليومِ. وهمْ يَرَوْنَ أنه لا يكادُ يُشْبِهُها في رَوْعَتِها وجُرْأَتِها سوى عبورِ هاني بَعْل لجبالِ الألْبِ، ومفاجأتِهِ الرومانَ من شِماليِّ إيطالية، على أنَّ مفاجأةَ خالدٍ كانت أتَمَّ، لأن حركتَهُ ظلَّتْ مَخْفِيَّةً عن العدوِّ حتى اللحظةِ الأخيرةِ، ولأنَّهُ طلعَ على العدوِّ من خلفِهِ قاطعاً بذلك خطوطَ مواصلاتِهِ مع قواعِدِهِ.

٢ ـ براعة التعبئة:

كانت تعبئةُ الجيوشِ للقتالِ تجري على الشكل الآتي:

يُقْسَمُ الجنودُ الذين سَيَشتركونَ في القتالِ الى ثلاثةِ أقسامٍ، وتقفُ هذه الأقسامُ الثلاثةُ أحدها بإزاءِ الآخرِ في خطٍّ مستقيمٍ. وكانوا يُسَمُّونَ القِسْمَ الأَوْسَطَ قَلْباً، أما القِسْمانِ الآخرانِ فكانا يُدْعَيانِ بالجناحَيْنِ. وكانوا يجعلونَ خلفَ القلبِ قِسْماً رابعاً لا يَشْتركُ في القتالِ يُدعى الساقةَ أو المؤخَّرَةَ، وكان يَضُمُّ فِرَقَ الإسعافِ والتَّموينِ والصِّيانةِ، وفي بعض الأحيان القُوى الاحتياطية التي تُزَجُّ في المعركةِ عندَ اللزوم.

وإذا لم يكنِ الجيشُ في حالةِ قتالٍ، بل كان في حالةِ مسيرٍ، فإنه كان يَضُمُّ قِسْماً خامساً يدعى

الطليعةَ أو المُقَدَّمَةَ. وهي قِطْعَةٌ صغيرةٌ من الفرسانِ الخِفافِ وظيفتُها أن تتقدَّمَ الجيشَ بمسافةٍ كافيةٍ لتقومَ بعملياتِ الاستطلاعِ والكشفِ ورَصْدِ حركاتِ العدوِّ، وتبليغِ كلِّ ذلك الى قائدِ الجيشِ العامِّ.

هذا النَّمَطُ من التَّعْبئَةِ قديمٌ جداً. وقد ظلَّ القادةُ العسكريّونَ يَعْتَمِدونَهُ فَتْرَةً طويلةً امتدَّتْ إلى مَطْلَعِ هذا القَرْنِ.

والحقُّ أن خالدَ بنَ الوليدِ لم يَمَسَّ هذا الأسلوبَ في التعبئةِ مَسّاً جَذْرِيّاً، فقد رَأَيْناه يجعلُ جيشَهُ قَلْباً وجَنَاحَيْنِ وساقةً، ولكنَّه أدخلَ بعضَ التحويرِ الذي عُدَّ بِحَقٍّ فَتْحاً جَديداً في فنِّ التعبئةِ. وقد تمثَّل هذا التحويرُ في قِسْمةِ كلِّ قطعةٍ من قِطَعِ الجيشِ إلى كراديسَ، يتألَّفُ كلٌّ منها من ألفِ مُقاتلٍ، وفي إعطاءِ كلِّ كُردوسٍ حُرِّيَّةً في الحركةِ تسمحُ له

بالتَّقدم ِأو التَّأخُرِ دونَ التَّقَيُّدِ بحركةِ بقيَّةِ الكراويسِ في القطعةِ. وقد وفَّرَ هذا الأسلوبُ للجيشِ العربِّيِ المميزاتِ الآتيةَ:

١ ــ كانتِ القواعدُ العسكريةُ تقضي بتراجعِ الجناحِ كلِّهِ إذا تراجعَ جُزْءٌ منه بسببِ ضَغْطٍ واقعٍ عليه من العدوِّ، وذلك لكي يَظَلَّ الصفُّ مستقيماً مستوياً. وفي نظامِ الكراديسِ لم يبقَ هذا ضرورياً إذ بإمكانِ الكُردوسِ الذي تعرَّضَ لضغطِ العدوِّ أن يتراجعَ وَحْدَهُ تظلَّ بقيةُ كراديسِ الجناحِ في مواقِفِها. وبذلك لا يستفيدُ العدوُّ من تراجعِ هذا الكُردوسِ، لأن القواعدَ المُتَّبَعَةَ تقضي بالمُحافظةِ على استواءِ الجناحِ، وعَدَمِ تَقَدُّمِ جُزْءٍ منه لِمُطارَدَةِ الكُردوسِ المُتَراجِعِ أمامَهُ.

وهكذا يستطيعُ الكُردوسُ المُنْدَحِرُ أن يَسْتَجِمَّ،

و يَأْخُذَ فترةَ راحةٍ يُعيدُ فيها تنظيمَ قواتِهِ، ليستأنفَ القتالَ في الوقتَ المناسبِ.

٢ ــ أسلوبُ الكراديسِ يسمحُ للعربِ بممارسةِ أسلوبِ الكَرِّ والفَرِّ في القتالِ. وهو أسلوبٌ يقومُ على أن تَهْجُمَ القطعةُ من الجيشِ، فتقاتلَ بِضْعَ دَقائقَ، ثم تَنْسَحِبَ بعيداً عن الساحةِ لإعادةِ تنظيمِ نفسِها، ثم تستأنفَ الهجومَ مرةً ثانيةً... وهكذا. وقد أتقنَ العربُ هذا الأسلوبَ في القتالِ إتقاناً جيِّداً، بل إن حروبَهُم في الجاهليةِ كانت كلُّها تَجري على طريقتِهِ ولم يَتَوَقَّفِ العَمَلُ بِهِ، و يُسْتَبْدَلْ بِهِ أسلوبُ الصفِّ ذي القَلْبِ والجناحَيْنِ، إلا بعدَ نزولِ قولِهِ تعالى: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذينَ يقاتِلونَ في سَبيلِهِ صفاً كأنَّهم بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ».

إذن فإنّ تَعْبِئَةَ خالدٍ في معركةِ اليرموكِ قد جمعتْ

بين مميزاتِ الأسلوبَيْنِ في القتالِ، وأتاحتِ الفرصةَ للعربِ لكي يُمارسوا أسلوبَهُم الخاصَّ في الكرِّ والفرِّ، مع الاحتفاظِ بنظام القَلْبِ والجناحَيْنِ.

٣ ــ إن قسمةَ الجيشِ إلى كراديسَ تفصِلُ بينها مسافاتٌ، قد أعطَتِ الجيشَ العربيَّ حجماً أكبرَ من حجمِهِ الحقيقيِّ، فقد بدا للناظرِ وكأنَّه مؤلفٌ من ثمانين ألفاً، في حين أنه لم يكنْ يَضُمُّ أكثرَ من ستةٍ وأربعينَ ألفَ مُقاتلٍ. وقد كان هذا ضرورياً للتَّعويضِ عن التَّفاوُتِ الكبيرِ بين الجيشينِ (الروم ٢٦٠ ألفاً ــ العرب ٤٦ ألفاً).

٤ ــ إن إعطاءَ كلِّ كردوسٍ الحريَّةَ الكاملةَ في العملِ يسمحُ لقائدِ هذا الكُردوسِ أن يَتَصَرَّفَ بما يُلائِمُ كُردوسَهُ، دونَ انتظارِ أوامرِ القائد العامِ، أو أوامرِ قائدِ الجَناحِ التابعِ له. وكلُّ ذلك يُوَفِّرُ سُرْعة

الحركةِ لكلِّ قِطَعِ الجيشِ، ويُتيحُ فُرَصَ المبادرةِ لقُوادِ الكَراديسِ.

٥ ـ إن مُفاجأةَ العدوِّ بتعبئةٍ غيرِ مألوفةٍ لا بُدَّ أن تُربِكَ خُطَطَهُ، وتَجْعَلَ ردودَ أفعالِهِ بطيئةً، مما يسمحُ للعربِ بأن يُمْسِكوا زِمامَ المبادرةِ بأيديهِمْ.

٣ ـ مرونة القيادة:

بعضُ القادةِ يَرْسُمونَ خُطَطَهُمْ، ثم يَمْضُون في تنفيذِها قُدُماً، لا يُغَيِّرونَ ولا يُعَدِّلُونَ، حتى تنتهيَ المعركةُ بإحدى نتيجتَيْنِ: إما النصرِ، وإما الهزيمةِ.

إنَّ القائدَ من هذا الصِّنْفِ قد يَرْبَحُ معركةً أو معركتَيْنِ، ولكنَّه ليس أهلاً لأنْ يَرْبَحَ كلَّ معارِكِهِ. ذلك أن أموراً كثيرةً تحدثُ أثناءَ القتالِ، دونَ أن تكونَ في حُسبانِ أحدٍ من الفريقَيْنِ المتقاتِلَيْنِ. والقائدُ المَرِنُ الذكيُّ هو الذي يُعَدِّلُ في

خُطَطِهِ بما يلائِمُ كُلَّ ظَرْفٍ، و يَنْسَجِمُ مع كلَّ طارىءٍ، ليستغلَّ كلَّ حدثٍ في سبيلِ الوصولِ الى هدفِهِ النهائيِّ الذي هو النصرُ.

وخالدُ بنُ الوليدِ كانَ واحداً من ألمعِ هؤلاءِ القادةِ الأذكياءِ المَرِنينَ. وقد ظَهرتْ مرونتُهُ في القيادةِ في جميعِ مراحلِ المعركةِ. فقد رأينا كيفَ أنَّه دعا أركانَ حربِهِ إلى الاجتماعِ بعدَ انتهاءِ الجولةِ الأولى من القتالِ لتَدارُسِ المَوْقِفِ، و يوَضْعِ خُطَةٍ جديدةٍ تلائِمُ ما بدا من نِقاطِ الضعفِ والقوةِ في كلا الجيشَيْنِ، ثم كيف عَدَّلَ هذه الخُطَّةَ نفسَها إثْرَ الهجومِ المفاجِىءِ الذي شَنَّه عليه قائدُ الرومِ «تيودوريكُ».

٤ ــ الإيمان والثقة:

إنَّ أبرعَ القادةِ، وألمعَهُم عبقريةً، لا يستطيعُ

كَسْبَ معركةٍ إذا كانَ يُقاتل بجنودٍ لا يُؤمنون بالهدفِ الذي يُقاتلونَ من أجلِهِ، أو لا ثِقَةَ لهم بقائدِهِمْ، ولو كان هؤلاءِ الجنودُ أكثرَ عدداً، وأوفى تسليحاً، وأحسنَ تدريباً.

ومعركةُ اليَرْموكِ خيرُ شاهدٍ على الجيشِ العظيمِ الذي يَخْسَرُ على الرُّغْمِ من حِنْكَةِ قائدِهِ. وعلى الجَيْشِ الصَّغيرِ الذي يَرْبَحُ على الرُّغْمِ من قِلَّةِ عَدَدِهِ.

كان جيشُ الرومِ يَعُدُّ ٢٦٠ ألفاً من خِيرةِ الجنودِ الروم البيزنطيِّينَ، وكان على أَتَمِّ سِلاحٍ وأوفاه، وكان مُدَرَّباً أحسنَ التدريبِ وأَعْلاهُ، وكان يقودُهُ نُخْبَةٌ مشهودٌ لها بالبَراعَةِ والخِبْرةِ من قادةِ الرومِ، وكان على القِيادةِ العامَّةِ أَمْهَرُهُم جميعاً وأَبْرَعُهُم، وهو تيودوريكُ أخو المَلِكِ هِرَقْلَ. ومع

كلِّ ذلك خَسِروا المعركةَ، وقُتِلَ منهم فيها ما يَزيدُ على ثمانينَ ألف جندي. وكان السبب في ذلك كلِّه أنّهم لم يكونوا يُؤمِنونَ، ولا كانوا يَثِقُون بقادتِهِمْ وسادَتِهِمْ. وكذلك كان قادَتُهُم لا يَثِقونَ بِهِمْ حتى إنَّهم رَبَطُوهُم بالسلاسلِ لإجبارِهِم على الثباتِ في المعركةِ، وعدمِ الهَرَبِ منها.

أما جيشُ المسلمينَ فلم يكُنْ يزيدُ على سِتَّةٍ وأربعينَ ألفاً، وكان ناقصَ التَّسليحِ، ضعيفَ الخِبْرةِ، غيرَ مدَّربٍ على القتالِ في معاركَ كُبْرى. ومع ذلك فقدِ انْتَصَرَ انتصاراً مُبيناً. وكان السببُ الأولُ في نصرِهِ هو إيمانُهُ بالهدفِ الذي يُقاتِلُ من أجلِهِ، وثقتُهُ التي لا حدودَ لها في قادتِهِ. وتصميمُهُ الذي لا يَتَزَحْزَحُ على بلوغِ إحدى الحُسْنَيَيْنِ: الشهادةِ في سَبيلِ اللهِ، أوِ النصرِ على الأعداءِ.

ويجب أن نُضيف هنا ثِقَةَ خالدِ بنِ الوليدِ بنفسِهِ، وثقتَهُ بجنودِهِ أيضاً. فلولا هذه الثقةُ لم يركبْ بِهِمْ المخاطِرَ، ويُجَشِّمْهُمُ الأهوالَ، في عبورِ الصحراء المُهلكةِ.

٥ ــ الفداء والتضحية:

وهل يجوزُ أن ننسى ما قَدَّمَتْه فِرْقَةُ الفِداء من تَضْحِيةٍ حتى لا تَحيقَ الهزيمةُ بالمسلمينَ؟ فلولا عِكرمةُ بنُ أبي جهلٍ وصَيْحتُهُ البطوليةُ «مَنْ يُبايعُ على الموتِ؟»، ولولا التلبيةُ التي أسرعَ بها ابنهُ عَمْرٌو، والحارثُ بنُ هِشامٍ، وضرارُ بنُ الأزورِ، وأربعُمِائةٍ من مغاويرِ المسلمينَ، لولا هؤلاء الذين ساروا الى الموتِ المحقَّقِ مختارينَ طائعِينَ لحاقَتِ الهزيمةُ المُنْكَرَةُ بجيشِ المسلمينَ.

ثم هل يجوزُ أن ننسى الأَثَرَ العميقَ الذي أحدثَتْهُ

النّساءُ في نفوسِ الرّجالِ عندما امْتَشَقْنَ سيوفَ القتلى والجرحى، ومَضَيْنَ بها إلى قِتالِ الرومِ تقودُهُنَّ خَوْلَةُ بِنْتُ الأَزْورِ، وجُوَيْرِيَةُ بِنْتُ أبي سفيانَ؟.

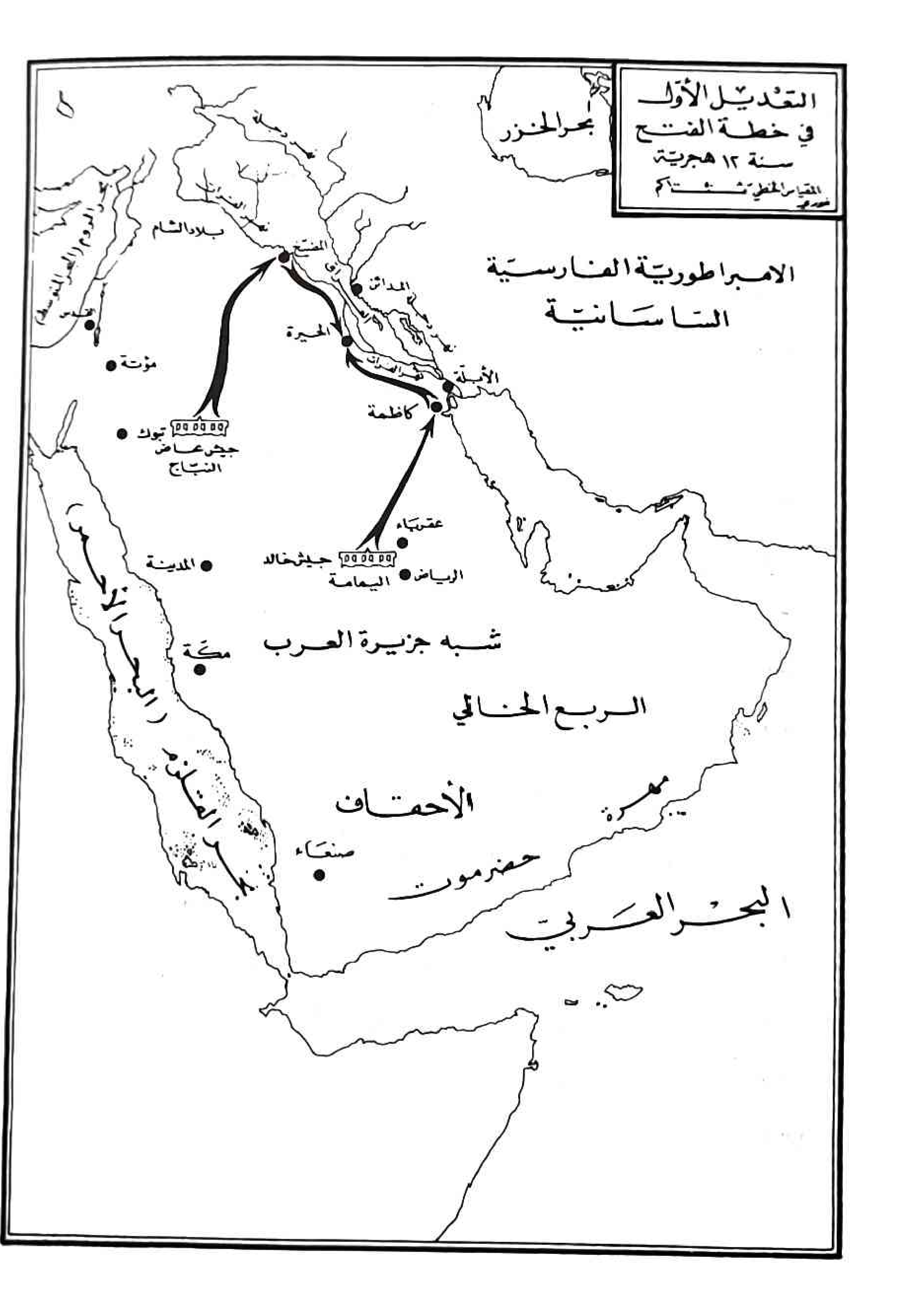
كيف يُمكِنُ أن يَنْهَزِمَ جيشٌ يرى رجالُهُ نِساءَهُم يقاتِلْنَ ببطولةٍ إلى جِوارِهِم؟!.

* * *

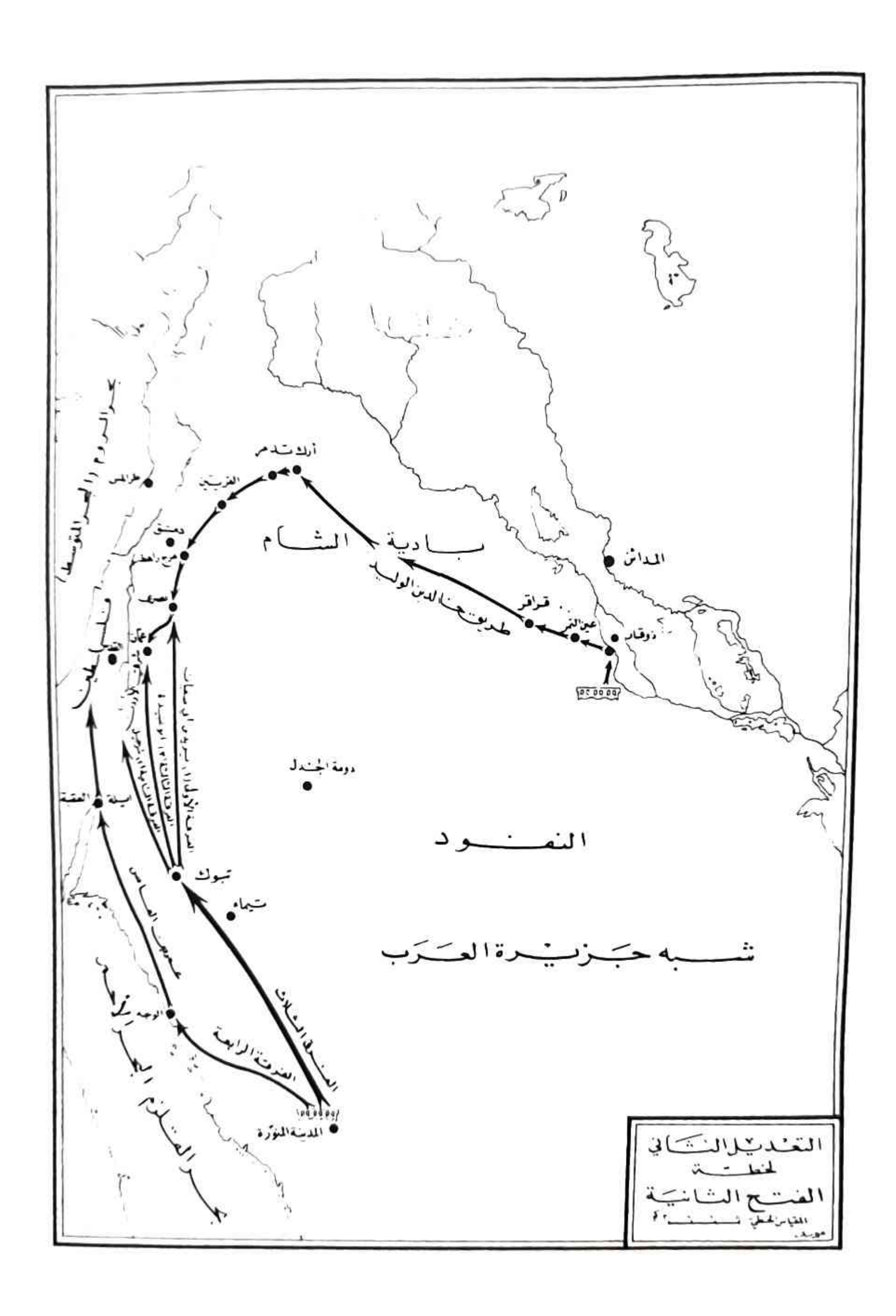
وأخيراً فإن معركةَ اليَرْموكِ كانت تجسيداً رائعاً للفَنِّ العسكريِّ العربيِّ الرفيعِ، ومثلاً أعلى في التضحيةِ والفداءِ، وصفحةً من أنْصعِ الصفحاتِ في سِجِلِّ البطولةِ العربيةِ.

الفهرس

معركة اليرموك



التعديل الأول
في خطة الفتح
سنة ١٢ هجرية
بحر الخزر
بلاد الشام
الامبراطورية الفارسية
الساسانية
المدائن
الحيرة
الأبلة
كاظمة
مؤتة
تبوك
جيش عياض
النباج
عقرباء
جيش خالد
الرياض
اليمامة
المدينة
مكة
شبه جزيرة العرب
الربع الخالي
الأحقاف
مهرة
صنعاء
حضرموت
البحر العربي
البحر الأحمر



أرك تدمر
القريتين
طرابلس
دمشق
مرج راهط
بصرى
عمان
بادية الشام
المدائن
قراقر
عين التمر
ذو قار
طريق خالد بن الوليد
دومة الجندل
النفود
تبوك
تيماء
شبه جزيرة العرب
أيلة
العقبة
الوجه
الفرقة الرابعة
المدينة المنورة
التعديل الثاني
لخطة
الفتح الثانية

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات ، من الجاهلية الى القرن الهجري الثالث .

١ - مَعركة ذي قـار
٢ - مَعركة بدر الكبرى
٣ - مَعركة أحُد
٤ - مَعركة اليمامة
٥ - مَعركة اليرموك
٦ - مَعركة القادسية
٧ - مَعركة نهاوند
٨ - مَعركة وادي لكة
٩ - مَعركة بلاط الشهداء
١٠ - مَعركة عمورية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والاستاذ محمد الانطاكي
واشرف على اصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

معركة اليرموك



معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والأستاذ محمد الانطاكي
واشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات
من الجاهلية إلى القرن الهجري الثالث.

١ - معركة ذي قار ٢ - معركة بدر الكبرى ٣ - معركة أحد ٤ - معركة اليمامة
٥ - معركة اليرموك ٦ - معركة القادسية ٧ - معركة نهاوند ٨ - معركة وادي لكة
٩ - معركة بلاط الشهداء ١٠ - معركة عمورية

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه إلا القادرون على
الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -